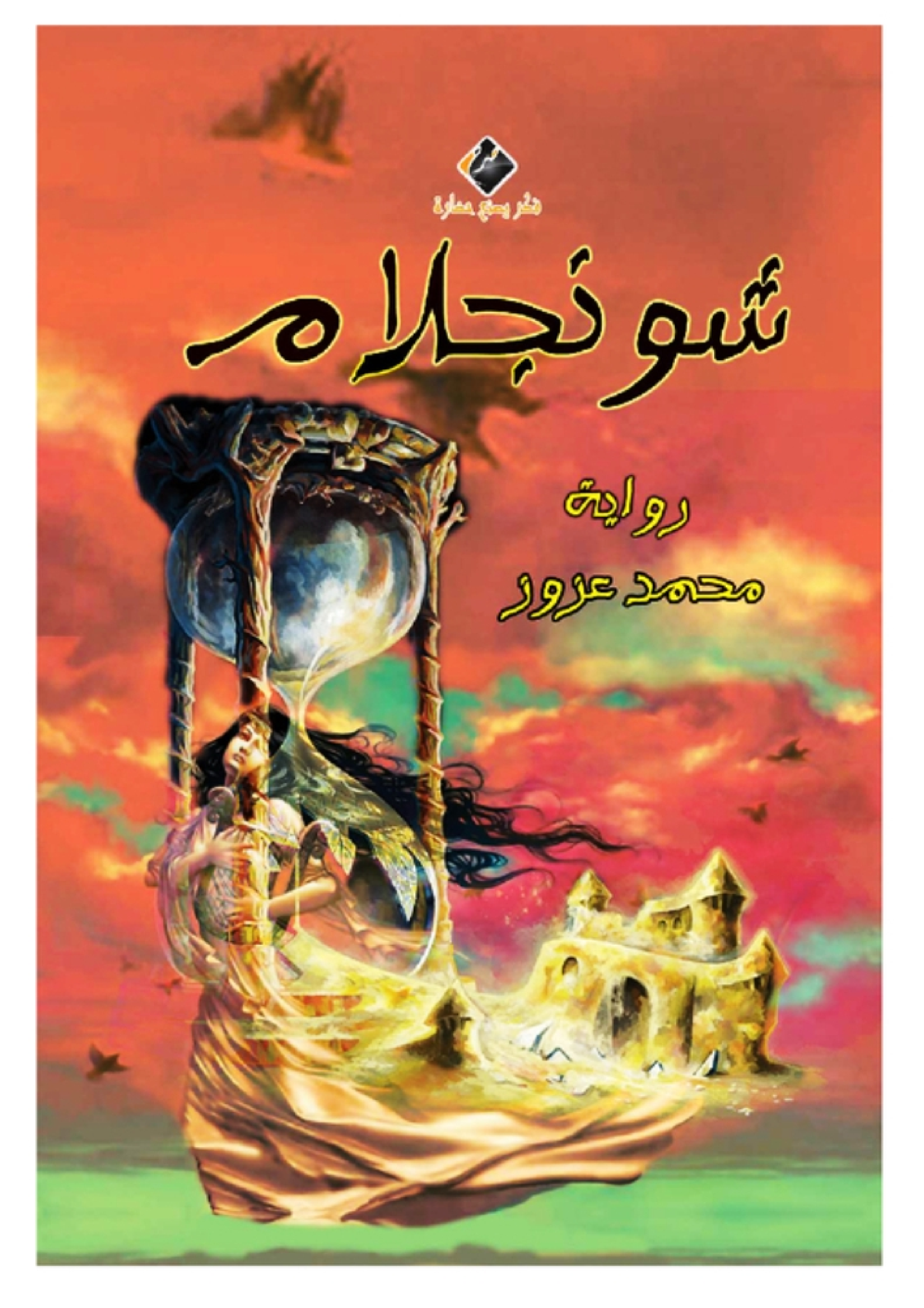


فكر يصنع حضارة
ثونجلام
رواية
محمد عزوز


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الكتـــــاب: شونجلام

المـــــؤلف: محمد عزوز

النـــــوع: القصص العربية

تصميم الغلاف:جيهان متولي

إخـــراج داخلي: بثينة فرج

الطبـــــــعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١١

عــدد الصفحات: ١٣٦ صفحة

المقـــــــاس: ١٤×٢٠

تدمـــــــك:

١- القصص العربية

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندســين (أ) بــرج (٢) الدور العاشر.

ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(+٢)

البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com

الموقع الإليكتروني: www.dar-sarh.com

رقــم الإيداع: ٢٠١٠/٢٣٨٦٩

الترقيم الدولي: 978 – 977- 6382-50-3

ديوي ٨١٠.٣

شـونجلام

شـــونجـــلام

تاليف

محمد عزوز



الإهـــداء

إلى

أصدقاء شونجلام الذين عاصروها.. فكرة..

ثم عالـمًا.. ثم واقعًا حيًّا..

محمد عزوز

(١)

القاهرة سبتمبر ١٩٨٦

القصة تبدأ من حيث لم أكن أتخيل.. منذ أكثر من عشرين عامًا كنت طالبًا في الجامعة.. كنا نسكن في عمارة بوسط القاهرة مكونة من تسعة أدوار. كانت شقتنا في الدور السادس، وتقع بكل دور شقتان متقابلتان.. المهم أن الدور الأخير (التاسع) لم يكن به سوى شقة أعرف أصحابها، وهي عائلة كريمة سافرت إلى الكويت منذ فترة طويلة، ولا أتذكر حضورها لمصر منذ أكثر من خمس سنوات. أما الشقة المقابلة فكانت مغلقة منذ أن وعيت على الدنيا، والغريب أن أحدًا لم يحكِ عنها قصة مشابهة للأخرى. فأحيانًا أسمع أنه كان يقطنها كاهن يهودي غريب الأطوار، وأحيانًا أخرى حكى لي بوّاب المنزل أنها سكنت لليلة واحدة من عروسين ثم اختفوا فجأه بعد ذلك. وهناك بعض المحلات في الشارع والتي عاصرتْ بناء المنزل، يؤكد أصحابها أن الشقة لم تسكن نهائيًا منذ بنائه.. على أي حال تعودنا منذ الصغر أنا و«شلّة» أصدقائي التي تسكن بنفس العمارة، وكنا تقريبًا في أعمار متقاربة، على سماع مثل هذه القصص حتى أصبحت لا تعني شيئًا بالنسبة لنا، ولا تثير أي نوع

من الغموض لمعظمنا حتى جاء ذلك اليوم.. كنا قد تعودنا على الخروج والسهر كمجموعة من الأصدقاء من نفس البيت، أو الشارع، لكن تصادف أن هذا اليوم لم يسهر أحدٌ من نفس العمارة سواي.. أتذكّر دخولي لمدخل العمارة في ما يقارب منتصف الليل.. المدخل هادئ وواسع ومضاء في الظروف العادية، لكن ليلتها لاحظت العكس.. بررت ذلك بأي عطل كهربائي وارد.. حتى وصلت لمدخل المصعد فكان الظلام دامسًا.. حاولت أن أتحسس موقع مفتاح الإضاءة بشكل عفوي، وعندما قمت بضغطه أضيئت الأنوار.. كانت المفاجأة التي أذهلتني..امرأة رائعة الجمال في أواخر العقد الثالث ترتدي ملابس تدل على ذوق رفيع يتناغم مع عطر لا أعتقد أنه يمكن أن يخطر ببال إنسان، كانت تقف أمام المصعد، لم تستدعه للنزول، وأيضًا لم تُضئ أنوار السلم، حتى إنها لم تنظر إليّ فور قدومي قبل أن أتمالك نفسي وألقي عليها التحية التي خرجت بنبرة محمّلة بعشرات الأسئلة:

« من أنتِ؟ لم تقفين في الظلام؟ لم أرك من قبل من زائري أو أقارب سُكّان العمارة بحكم نشأتي ومعرفتي بكل القاطنين بالمنزل!»

أحسست مع كل هذه الأسئلة بضغط ذهني وتوتّر شديد انتهى فجأة مع التفاتها إليّ وردها التحيّة بنبرة أكثر من رائعة تحمل في طيّاتها

ثقة لامحدودة، وكأن الزمن قد توقف لفترة أو كأنها كانت بانتظاري، مدّت يدها برقة بالغة لتضغط على زر المصعد. لم أتذكّر قبلها أن ذهني كان يعمل بسرعة تلك اللحظة، فالمطلوب إجابات على أسئلة كثيرة، وتبريرات لوضعٍ غريب، علاوة على تصوّرٍ لرد فعلي القادم والذي يحمل إعجابي الفجائي بها.

وصل المصعد بعد انتظارٍ لوقتٍ أحسست أنه لا ينتهي، فالفضول والإثارة اندمجا معًا ليتحكما في مرور الوقت والإحساس بالزمن.. «تفضلي».. قلتها بصوتٍ أعلى من المعتاد، ربما لأعطي لنفسي بعض الثقة، تنهدت وتقدمت بخطوات هادئة لداخل المصعد.. أغلقتُ الأبواب وسألتها بشكلٍ يبدو طبيعيًا:

-«أي دور؟»..

لم تردّ، فأعدتُ عليها السؤال، فالتفت بنظرة رقيقة:

-«لا، تفضّل أنت»..

دفعني الفضول لأكرر السؤال بشكل آخر:

-«قبل السادس؟»

فنظرت إليّ بنظرة تحمل الكثير من التحدّي:

-«لا، التاسع!».

لا أتذكّر أن الرقم تسعة قد أثّر فيّ قدر ماحدث في هذا الموقف، فأنا أعلم جيدًا عدم وجود أحد نهائيا بالدور التاسع، ولايفترض أن تكون أحد أقارب الشقة التي أعرف أصحابها، ولما هذا الوقت المتأخر وهل تكون في الشقة التي..؟

كان المصعد قد وصل للدور السادس حيث أسكن.. قررت فورًا أن أنفذ ما خطر بذهني معتمدًا على قِدَم وبُطء المصعد.. بدون تردد فتحت أبوابه لآخرها بشكل مبالغ فيه؛ على أن أستغل الوقت الذي تقوم فيه هي بإغلاق الأبواب -خصوصًا الخارجي وهومشغول من الحديد الثقيل- بصعود السلم بسرعة حتى الدور التاسع بحيث اختبئ بجوار المصعد وأكتشف مقصدها بشكلٍ محدد.

تأكّدت من إغلاقها لأبواب المصعد، وتحرّك المصعد في نفس اللحظة التي انطلقت فيها على السلم بأقصى سرعة، وقد كان التوقيت دقيقًا جدًا بحيث وصلت تقريبًا بفارق ثوانٍ قبل وصول المصعد.. أخذت ألتقط أنفاسي وأنا مختبئ بجانب المصعد في انتظار خروجها.. مرّت ثوانٍ ثقيله تبعتها دقائق أصابني فيها الارتياب وأنا مختبئ.. حتى قررت فجأة أن أظهر أمام المصعد الذي لم تنفتح أبوابه من لحظة وصوله نظرت في المصعد.. فتحت الأبواب.. دخلت.. لم يكن هناك أحد!..

تبخّرت؟!.. هل كنت أحلم؟.. كدت أُصاب بالجنون لولا أني تأكّدت أنه واقع من رائحة العطر التي مازالت تملأ المكان!..

***

كانت مناقشات ومجادلات ساخنة بيني وبين شلة الأصدقاء. البعض يصدق، والبعض يكذب القصة من أساسها، والبعض يتهكّم. باستثناء أحد الأصدقاء الذي افترض صدق الموضوع واستقر تحليله أن اللغز يكمن بالشقة المغلقة بالدور التاسع، وأكمل ذلك بتصوّرات وتحليلات منطقية إلى حد ما، فدفعتنا -أنا وهو- لوضع خطة لمحاولة اكتشاف الحقيقة.

جهّزنا عدّة يدوية بسيطة، ووضعناها في صندوق البريد الموجود بمدخل العمارة على أن نخرج لنسهر كعادتنا، وعند عودتنا نأخذ تلك الأدوات ونتوجّه للشقة المريبة بالدور التاسع.. حاولنا قدر الإمكان أن يكون موعد وصولنا هو منتصف الليل لربما صادفنا تلك السيدة مرة أخرى.. سارت الخطة بشكلٍ سلسٍ جدًا حتى وصلنا -أنا وصديقي- إلى الدور التاسع وخرجنا من المصعد لنقف في الظلام أمام باب تلك الشقة.. سكون تام يحيط بالمكان، مع إحساس بلفحة هواء لم نعرف مصدرها، كما لم نعرف أيضًا ما هي الخطوة التالية.. مرَّ أكثر من عشر

دقائق بدون وجود أيّة ظواهر غير طبيعية.. بعدها بدأنا نشعر بالملل يتسرّب إلينا مع إحساس أن القصة كلّها هي ضربٌ من الخيال، وانصرفنا كلٌّ إلى شقته على أن ننسى هذا الموضوع نهائيًا.

مرت أكثر من خمسة أيام على المحاولة البوليسية الفاشلة، وزاد اقتناعي تدريجيًا بأن الموضوع لم يكن إلا نوع من أنواع الهوس الوقتي.. ولِمَ لا؟ فقد يتخيل بعض الأشخاص -في ظروف خاصة- صورًا مرئية أو أصواتًا أوحتى روائحَ.. لكن بقي بداخلي إحساس كامن رافض لاعتبار أن ما حدث هو مجرد خيال.

***

كنا سعداء جدًّا بحفل عشاءٍ أقامه أصدقائي بمناسبة عيد ميلادي في الليلة السابقة لموعده، ومع الكثير من الحوارات والمزاح المستمر تحوّل الحديث بشكلٍ مفاجئ عن تلك الليلة والمحاولة الفاشلة التي قمنا بها، كان التهكّم هو السمة السائدة في الحوار حول ما حدث، وتعالت الأصوات بشكلٍ زائدٍ من تعليقات، أو حورات جانبية متداخلة.. حتى لحظة انقطاع الكهرباء.

كان الظلام عاملًا مساعدًا بقوة على إضفاء جوٍّ من الرعب الكوميدي لأصدقائي، خاصة مع إضاءة مجموعة من الشموع. لا أنكر

أنني اندمجت معهم بشدة حتى كان ما حدث وأحسست بها لم أكن أتصوّر حدوثه نهائيًا.

كنا نجلس على مائدة مستديرة كبيرة.. إضاءة الشموع أضفت جوًّا غامضًا ومثيرًا، وفي تلك اللحظة، ومع سماع دقّات الساعة، منتصف الليل تمامًا، صادف أن توقّفت بشكلٍ مفاجئ للحظات أصوات الأصدقاء.. خمّنت أنهم ربما توقفوا حيث إن اليوم يوافق عيد ميلادي بعد مرور الساعة الثانية عشرة، لربما كانت هناك مفاجأه ما بانتظاري، ولكن جاءت المفاجأة مخالفة تمامًا لتصوّري.

لم يكن هذا الصمت بسبب أي شيء مما ذكرته، ولم أعرف كما لم يعرف أي أحد من أصدقائي لماذا توقف الحديث فجأة، وبدون مناسبة وفي تمام الثانية العاشرة مساء، إلا أنني وفي هذه اللحظة بالتحديد كنت الوحيد الذي تلقّى المفاجأة المذهلة.. يد تلامس كتفي.. بدون أدنى شكّ هي يد.. وكرد فعل تلقائي ومع تصوّري أنها يد أحد الأصدقاء الجالسين بجواري حاولت أن أبعدها.. لم يكن هناك شيء.. فقط فراغ، وتكررت المحاولة عدة مرات.. لاشيء! ولكني مازالت متأكّدًا من وجود يد تلامس كتفي.

كيف لا وقد تحرّكت اليد لتربت برقة فوق رأسي.. لا مجال للشك، هناك شيء غير عادي يحدث.. سكوت.. ظلام.. شيء ما يتحرّك فوق رأسي.. لم أستطع أن أتحمّل أكثر من ذلك.. قفزت واقفًا..أزحت المقعد بشكل فجائي.. وكأنه سيناريو مكتوب، أُضِيء النور في تلك اللحظة تحديدًا. جلست مرة أخرى ألتقط أنفاسي.. نظرات شاردة تُتَبادل في الخفاء بين الأصدقاء.. هناك شيء غريب حدث أو يحدث، لكن لم يكن هناك من يمتلك الخيط لبداية الحديث، إلا أن الأحداث أحيانًا تدفع المشاهد للحديث.

عندما أُضيئت الأنوار كانت الملاحظة التي لاحظها كل الحاضرين هي وجود مسحوق أحمر ناعم على كتفي، ويتناثر بشكل مرتّب فوق رأسي.. أنا فقط!.. لماذا؟ ومن أين جاء؟.. ومع عدم إخباري لأي أحد من الأصدقاء باليد التي أحسست بها في الظلام جاءت تبريراتهم – لوجود ذلك المسحوق– سطحيه تمامًا.

لم أُعِر أهمية لحديثهم، فقد كنت شاردًا تمامًا؛ أحاول بشتى الطرق أن أربط الأحداث، أو أحاول أن أستنتج أي شيء يوضح الأمور.

ولكن ما هذا؟! أكاد أُصاب بالجنون.. فالمسحوق عندما شممته له نفس رائحة العطر الذي لايُنْسَى لسيدة المصعد.. وهنا أحسست أنني

أنا بالتحديد طرف أساسي في قصّة ما.. لكن ما هي؟.. قررت أن أواجه ما يحدث بمفردي، لا أنكر أنني كنت أشعر بخوف داخلي، لكن إحساس الإثارة والوقائع التي تنصبّ كلها على كوني أنا المقصود، أو على الأقل ما يبدو كذلك، كل هذا دفعني لاتخاذ خطوات حاسمة وفورية..

***

انصرفت مسرعًا بمفردي بعد كلمات مجاملة سريعة للأصدقاء.. كان ذهني يعمل بحافز قوي بدون أي نوع من التخطيط.. وصلتُ سريعًا إلى المنزل.. الساعة قاربت الواحدة صباحًا .. كنت قد جهّزت مفكًا كبيرًا من عدة السيارة.. أخذت المصعد إلى الدور التاسع مباشرة عندما خرجت كان كل ما يدور بذهني هو أن أضع حدًّا لتلك التساؤلات، على الأقل لتبدو منطقية.. كانت الإضاءة خافتة إلى حدٍّ ما أمام الشقة المقصودة.. ولكن ماذا أفعل والباب مغلق وأنا لم أتصوّر أن أحاول فتحه.. لم يَطُل تفكيري كثيرًا، فقد لمحت إضاءة ما تبرق بشكل مفاجئ من خلال العين السحرية المثبتة بوسط الباب.. أصابني الرعب.. من أين جاءت هذه الإضاءة.. قررت أن أنتظر لبضع دقائق

لأرى إن كان هذا البريق الذي حدث هو انعكاس لضوء خارجي.. ما هذا الذي أفكر به؟ فلم يكن هناك أي منفذ قريب يمكن أن تنعكس منه أية إضاءة.. ولم تدعني الأحداث لأستمر طويلًا في التفكير، فقد تكررت تلك الومضات بشكل متتالٍ، وتناقصت الفترات الزمنية بينها وأصبحت أكثر وضوحًا.

أحسست في النهاية وكأن شخصًا قد اقترب من خلف هذا الباب يحمل إضاءة مبهرة مسلّطة كشعاع مُركّز من خلال العين السحرية.. تراجعتُ لخطوات إلى الخلف.. كان شعاع الضوء يرسم رمزًا على الباب المقابل، لم أستطع في البداية تحديده إلا أنه تحوّل بالتدريج إلى شكل دائري بدأت تظهر خلاله ملامح.

ما هذا الوجه الكريه؟ صورة بدأت معالمها تظهر على الباب المقابل لشخص ذي ملامح حادة، وذقنٍ تبدو وكأنها لأحد فلاسفة الإغريق.. كنت في حالة من فقدان التركيز، وأحسست أن عقلي قد توقّف عن العمل.. كنت واقفًا في المسافة بين البابين المتقابلين أتأمل هذا الوجه الذي أصبح واضحًا بشكلٍ يبدو وكأنه طبيعيٌّ، والعجيب أن

شعاع الضوء الذي يرسم هذا الوجه كان ينفذ من خلال جسدي بدون أن ينقطع.

أي نوع من الخدع البصرية هذا الذي يحدث؟.. في أي عصر نحن؟... التفتُّ فجأة في اتجاه شعاع الضوء، وكنت لاأزال أحمل في يدي هذا المفك.. توجّهت بشكل مباشر إلى العين السحرية حيث مصدر الشعاع، وبدأت في الطرق عليها بشكل هيستيري.. وفي لحظة انكسر زجاج العين السحرية مع اختفاء الشعاع والوجه الظاهر على الباب المقابل، ولكن لم تنته المفاجآت..

العين السحرية ينبعث منها دخان أحمر كثيف حتى أنه في أقل من دقيقة ملأ المكان بشكل تام.. لم أتحرك من الذهول، والغريب أن هذا الدخان كان يشكّل ضبابًا ناعمًا له إحساس غريب عندما ينسدل على الوجه.. فهو طور غريب من حالة المادة لم أتصوّر وجوده من قبل، يمكن أن نطلق عليه دخان ملموس إذا صح التعبير.

لم أعش من قبل حالة من الإثارة الممتزجة بالنشوة مثل تلك اللحظة.. هذا الضباب الكثيف له تأثير لايمكن وصفه أو تحليله، حتى أنني قد شعرت بضيق شديد عندما انقشع فجأة، ولكن لماذا انقشع؟ فقد كان يبدو أن هناك المزيد!

أصبحت الرؤية واضحة بشكل غير طبيعي، وكأن الضباب قد أزال أي شوائب موجودة في الجو.. نظرت في الساعة لم تمضِ أكثر من عشر دقائق منذ صعودي أمام الشقة.. تأكدت تمامًا الآن أنني أتعامل مع إحدى الظواهر الخارقة للطبيعة، فما حدث الليلة لايدع مجالًا للشك في ذلك، ولكن ما هي الخطوة التالية؟.. كانت هذه الأفكار تدور في ذهني وأنا أوجّه نظري نحو الباب الذي خرجت منه تلك الأدخنة الكثيفة.. لم ألاحظ كيف ومتى حدث ذلك.

كان الباب يبدو مفتوحًا.. أيمكن أن يكون قد حدث ذلك أثناء طرقي على العين السحرية؟.. لكن الباب لم يكن ضعيفًا لهذه الدرجة بحيث ينفتح من مثل هذه الطرقات.. هل يمكن أن تكون هواجسَ رسمها عقلي الباطن ليكمل بها هذا الموقف المثير؟.. اقتربت بحذر.. نعم مفتوح لامجال للشك.. وبقدر ما كانت الرؤية واضحة في الخارج فإن الظلام بالداخل كان دامسًا رغم أني دفعت الباب بيدي لينفتح لأكثر من نصفه.

أصبحت في موقف يصعب عليّ فيه أن أفكر حتى في التّراجع، ومع إحساسي الذي تعدى مرحلة الخوف، وهو إحساس يصعب

وصفه، دفعتني أقدامي لأخطو بخطوات ثقيلة نحو المجهول، يحرّكها كمُّ الإثارة والفضول الذي ازداد مع أحداث هذه الليلة.

***

تقدمتُ بخطوات بطيئة إلى مدخل الشقة بعد أن دفعت الباب برفق فانفتح على مصراعيه مُصدِرًا صريرًا عاليًا نتيجة طول سنوات إغلاقه.. كانت الشقة بنفس الجانب الذي تقع فية شقّتنا بالدور السادس، وهو ما جعلني مدركًا للتخطيط العام لها، لكن رغم ذلك فقد دفعني الظلام أن أتوقف بعد خطوات لأراجع نفسي.. هل أتقدم بعد هذه الأحداث الحافلة؟ وهل يمكن أن أتوقّع في هذا الجو المظلم أن يكون لي رد فعل سريع أمام مايمكن أن يحدث من أحداث تالية متوقعة؟.. تذكرت وجود كشّاف صغير بـ(ولّاعة) السجائر الموجودة بجيبي وكأنه طوق النجاة في بحرٍ هائجٍ.. تغيّرت الرؤية تمامًا بعد تلك الإضاءة، وإن كانت خافتة، إلا أنها ساعدت على كشف الكثير من التفاصيل.. خطوت عدة خطوات لأعبر المدخل إلى الصالة الواسعة.. كان توقُّعي أن يكون المكان مكدسًا بأثاثٍ قديم... فأنا لم أدخل هذه الشقة نهائيًا.. لكن العكس كان صحيحًا.. المكان فارغ تمامًا.. حوائط، وأسقف، وأرضيات فارغة، لكن..

مع ضوء الكشاف، وفي هذا الفراغ، بدت بعض المشاهدات لي كرموز، أو ربما هذا مافسره عقلي في هذه الظروف.. الأرضية مبللة حتى أني أسمع صوت أقدامي وهي تتحرّك في المياه.. لكن من قال إنها مياه؟ فقد كانت تحمل رائحةً غريبةً أقرب ما تكون لخليط من التوابل أو العطور الشرقيّة.. لم أتوقف عند تلك الملاحظة، وتقدمت خلال البهو المفتوح مُحرِّكًا كشاف الإضاءة في معظم الاتجاهات.. تسمّرت قدماي فجأة، وازدادت ضربات قلبي بشدة عندما وقع نظري من خلال شعاع الضوء الرفيع على تلك القاعدة الرخامية السوداء، والتي تحمل تمثالًا لنصف وجه امرأة مشقوقٍ شَقًّا طوليًّا يحمل كافة التفاصيل التي تجعلها تبدو كواقع ملموس لأي ناظر.. ومع شعاع الضوء الواقع عليها كدت أصرخ فزعًا.. فقطرات حمراء تبدو كالدماء مازالت تنسدل من هذا الوجه المشقوق على أجناب القاعدة الرخامية لتنزلق بعدها إلى الأرضية التي تكدس فيها حول القاعدة أكوام مبعثرة من أطقم مائدة فضّية تبرق مع ضوء الكشاف وتتلون بنقاط الدماء الحمراء.

تحركتُ مع ضوء الكشاف في الممر المؤدي إلى حجرات النوم.. كان ممرًّا طويلًا تقع في جوانبه حجرات مغلقة.. مع كثرة المفاجآت المتتالية لم أتمكن من استجماع شجاعتي لمحاولة فتحها.. إلا أن الحجرة

الأخيرة كانت تحمل أقصى ما يمكن أن تتحمّله الأعصاب في هذا الموقف.. أصوات.. نعم كان ينبعث منها أصوات.. حوارات متداخلة لم أستطع -رغم وضوحها- أن أفسّر أي شيء منها.. لكن المؤكد أنها أصوات نساء ورجال في أعمار مختلفة، وفي مناقشة ساخنة ولكن بلغة عجيبة تشمل الكثير من التنهدات المتكررة.. نعم! الآن أنا أتعامل مع أوساط غير آدمية.. هذا ما خطر بذهني بشكلٍ مؤكد.. كنت أفكر في ذلك في نفس اللحظة التي امتدت فيها يدي لتفتح باب الحجرة.

أغمضت عَيْنَيَّ لوهلة انتظارًا لمفاجأة مذهلة.. مازلتُ أمسكُ بمقبض الباب وأنا أفتحه.. ربما كان ذلك كرد فعل تلقائي استعدادًا لغلقه مرة أخرى بسرعة عند وجود خطرٍ ما، ولكنني تراجعت.. ما هذا التفكير الساذج؟ فأنا لا أعرف ما أواجه بالتحديد.. هل تتساوى ردود الأفعال البشرية مع القدرات غير البشرية؟.. لم أجد إجابة.. دفعت الباب بقوة.. الحجرة خالية تمامًا، عادية جدًا، أرضيتها من الخشب الذي يطلق صريرًا مخيفًا أثناء السير عليه، لكن لا أصوات، لا أحد، لا شيء.. لكن ما هذا؟.. على الحائط المقابل للباب لوحة زيتية كبيرة

لذلك الوجه الكريه الذي رسمه شعاع الضوء على باب الشقّة المقابلة ولكن.. من هذه التي بجانبه؟.. نعم! بدون شك هي، فوجهها لايمكن أن يخطئه أحد.. إنها سيدة المصعد.

***

أحسست بنقصٍ مفاجئ للهواء بالغرفة، وتمنيت أن تنتهي تلك الليلة بأحداثها كلّها الآن.. نقصُ الهواء دفعني تلقائيًا للتوجّه إلى النافذة المغلقة لفتحها، لربما قليل من الهواء قد يساعدني على التقاط أنفاسي، أو لعلّه يغيّر تلك الأحداث المرعبة.. حاولت أن أفتح النافذة بشتى الطرق ولم أستطع.. كانت النافذة مكوّنة من النوافذ الزجاجية والـ(شيش) الخشبي العادي.. خطر بذهني أنَّ كسرَ جزءٍ من الزجاج ظهر وراءه جزء مفقود من الـ(شيش) قد يساعد على دخول الهواء النقيّ.. وباستخدام نفس المفكّ الذي كسرتُ به العينَ السحرية انكسرَ زجاجُ النافذة تمامًا، كما توقّعت و خلفه الجزء المحطّم من الـ(شيش).. وبالفعل تدفق الهواء بشكلٍ مذهلٍ في الغرفة وكأن طول فترة إغلاقها كان السبب الأساسي في قلة الأكسجين بها.. أحسست بالهدوء يتسرّب إلى نفسي تدريجيًا.. ولكن كيف تنتهي الأحداث في مثل هذا المكان؟ فكل ما حدث لم يكن طبيعيًا أو منطقيًا.

اقتربت من الجزء المكسور من النافذة لأستنشق مزيدًا من الهواء، ومع اقترابي انتابني إحساس غريب أن الهواء يحمل نسمة برودة بَحَريّة محمّلة برائحة يود البحر، وهي رائحة لايمكن أن تخطئها أيّة حاسة شمّ، دفعني الفضول أن ألقي نظرة على الشارع من خلال الجزء الخشبي المحطم.. كان الظلام غريبًا، وحالكًا، ورغم تأكُّدي من موقع هذه النافذة والتي تطل بشكل مباشر على الشارع حيث تتوهّج الإضاءة به طوال ساعات الليل، لكن لا.. ظلام كامل.. ومع تركيزي بدأت تتضح الصوره.. بحيرة ضخمة.. مياه.. ساحل بحر.. ما هذا؟.. أيمكن أن أكون في حلم؟.. نعم أحلم! فلو لم أفكر أنني أحلم سوف أُصاب حتمًا بالجنون.

استدرت بسرعة قاصدًا باب الشقة بغرض أن أنصرف فورًا بدون أن أترك الفضول يدفعني إلى حيث لا أعلم.. وعلى ضوء الكشّاف الصغير، الذي بدأ ضوؤه يخفت نتيجة ضعف البطاريات، توجهت لباب الشقة فكانت المفاجأة أن الباب مغلقٌ.. ونتيجة توالي الأحداث لم أُصَب بقلق.. تعاملت مع الباب المغلق بهدوء حتى انفتح، وقبل أن أخطو أية خطوة مغادرًا المكان كانت الصدمة الكبرى.. نعم! اجتمع كل ما عانيته تلك الليلة فشكّل مفاجأة من العيار الثقيل، لكن ربما

ماحدث سابقًا في تلك الليلة قد خفف قليلًا من إمكانية انهياري من تلك الصدمة.

لم ألمح لأول وهله عند فتح الباب الشقة المقابلة.. لم يكن هناك الممر الموجود بين البابين.. لم يكن هناك وجود للمصعد.. لم يكن المنزل نهائيًا.. إنه مكان آخر تمامًا.. ممر حجري طويل لا تظهر نهايته، يبدو كجزء من أنفاق حجرية طبيعية.. معلَّقات حائطية تصدر منها إضاءة خافتة تتراوح بين الإضاءة الطبيعية والصناعية .. سكونٌ تام..

(٢)

الاتصال

ماذا أفعل؟ فأنا في موقف لا أعرف كيفية الخلاص منه.. فالشقة مصدر اللعنات خلفي، وأمامي مجهول يبدو أنه يحمل من المفاجآت أكثر مما رأيته هذه الليلة، وتمنّيت بشدة أن ينتهي هذا الكابوس بأي شكل.. حاولت أن أعرف الوقت على ضوء الكشاف الذي كان بالكاد يطلق آخر شعاع من الضوء.. لا.. لا يمكن.. إنها السابعة.. كيف وقد وصلت الشقة بعد أن تركت الأصدقاء في الواحدة صباحا؟ أيعقل أن تكون تلك الدقائق التي قضيتها بالشقة هي ساعات بدون أن أشعر؟ أنا لم أمضِ في هذا المكان أكثر من ساعة واحدة فقط على أقصى تقدير.. والساعة لم تتوقّف.. أية سابعة هذه؟ صباحًا أم مساءً؟.. كلاهما غير مقبول نهائيًا.

كنت في الخط الفاصل.. أتقدم أم أتراجع، أيهما الاختيار الصحيح؟.. تمنيت أن أكون بحجرتي الآن أقرأ رواية رومانسية، أو

أشاهد فيلمًا كوميديًا.. ولكن منطقيًا فإنَّ أحدًا لم يدفعني لأتواجد في هذا المكان.

قررت أن أتقدّم في الممر الحجري على أمل أن يكون نوعًا من الهلوسة البصرية تتضح عندما أخطو بداخله.. اقتنعت بهذا الخاطر، فالعقل غالبًا مايذهب تلقائيًا للاقتناع بأي تفسير يناسب الموقف..

بدأتُ بخطوات بطيئة وأنا أحاول أن أستوعب هذا المكان الذي يجلب الرهبة للنفس بشكلٍ تلقائي.. كانت التفاصيل التي ذكرتها لوصف المكان تتكرر بشكل متطابق مع استمرار سيري حتى أنك تشعر كأنها نسخة معادة تتكرر كل حوالي خمسة أو ستة أمتار، لكن إلى متى؟ عندما توقّفتُ لأنظر خلفي كان باب الشقة قد ابتعد بحيث لم يظهر منه سوى خيال بعيد.. هل ألتف وأرجع؟ ولكن لا.. انتهى هذا التفكير، فلأتقدم وأنتظر ما سوف يحدث.. بعد أكثر مما يقرب من عشر دقائق من السير بنفس المكان، التفَّ الممر بشكل فجائي ليتغير تمامًا، لكنه مازال ممرًّا حجريًا بينما اختفت مصادر الإضاءة المعلّقة على الأجناب، وظهر بدلًا منها ضوء طبيعي يتسرّب من خلال طاقات دائرية مفتوحة على جانبي الممر.

كـان طبيعيًـا أن أقـوم فـورًا بإلقـاء نظـرة فـضول مـن خـلال تلـك الفتحات، ومع أول فتحة قابلتهـا عـلى الجانـب الأيمـن أخرجـت رأسي لأنظر.. ما هذا الوهم؟ يبدوأنني أسير في ممر حجري معلّق على ارتفـاع شاهق، تطل الفتحه على بحرٍ هائجٍ مـن ارتفـاع يكـشف عـرض البحـر، ولكن ماذا عن الجهـة المقابلـة؟ انتقلـت سريعًـا لألقـي نظـرة مـن خـلال الفتحـة المقابلـة.. وكـأن أحـدًا يتعمـد أن يـصيبني بـالجنون.. غابـات وأشجار كثيفة ممتدة على مدى البصر.

كان نفس المشهد يتكرّر في الفتحات المتقابلة طـوال الممـر.. يمينًـا البحر الهائج، ويـسارًا الغابـات الممتـدة، حاولـت بعـد كـل مجموعـة مـن الفتحات أن أنظر لأحاول تمييز أي علامات، أو حتى ألمح أي شكلٍ من أشكال الكائنات الحيّة، لكن كأنها صورة متحرّكة تتكرر.

أخذت الإضاءة الطبيعية التي تنفذ من الفتحـات الموجـودة بـالممر تقـلّ بـشكلٍ يبـدو فيـه أن الليـل يحـل متناسـقًا مـع تقـدُّمي.. لم يـستغرق دخول الليل نفس الوقت الطبيعي الذي نعرفه من الصباح حتى المساء.

وكأن الزمن يتحرّك بسرعة أكبر مـن الطبيعيـة.. مـع بدايـة دخـول الليـل أصـبحت الـبرودة عاليـة بـشكل يـصعب وصـفه، واقترنـت هـذه

البرودة بمفاجأة جلبت حرارتها بعض الدفء في مواجهة إحساس الصقيع الموجود.. نفس الأصوات التي سمعتها قبل فتح الغرفة بالشقة تتكرر ولكن هذه المرة كانت مقترنة بصدًى غريب.. وكانت تقترب.

***

لا يمكن وصف مكان يثير الرعب بكل ما يُحيط به من مؤثّرات أكثر من ذلك المكان في تلك اللحظة.. فأنا بعيدٌ عن كل من تعاملت معهم من بشر.. لا وسيلة اتصال بأحد.. في ممر حجري مظلم، وبرودة شديدة تنفذ من فتحات جانبيه.. أصوات غريبة تقترب وتتعالى، زاد عليها امتزاجها على فترات بصوت صرخات حادة تثير الرعب بشكل يزيد عن الصرخات الطبيعية.. اقتربت أكثر وأكثر.. أضواء تبدو كنيران مشتعلة ممتزجة برائحة احتراق عضوية.. كل هذا مع خلفية الصرخات التي تتكرر بشكلٍ يُثير الذعر.

جعلتني الأحداث السابقة كما ذكرت أتعدى مرحلة الخوف لمرحلة أصح ما يطلق عليها (اللامبالاة)، فقد كنت متعجبًا أن إحساسي في هذا الموقف كان بدرجةٍ لا تتناسب نهائيًا مع مثل هذا الهول، ممرٌّ فرعيٌّ هو ما تصدر منه تلك الأصوات، وتنبعثُ منة رائحة الحريق التي

امتزجت فيه بأدخنة متصاعدة.. الممر يضيق بالتدريج حتى ينتهي بما يشبه الشُّرفة الصغيرة.. وعند أول نظرة من تلك الشرفة كان هناك ما لا يخطر ببال بشر.

كانت الشرفة تطل على قاعة دائرية على ارتفاع يقارب العشرة أمتار أو أكثر قليلًا، تُرصّ بشكلٍ دائري على جوانبها أطياف هلامية بشكلٍ بشري، لكنها.. هواء.. دخان.. أو ضباب.. لا أعلم ولا وقت لأفكّر في هذا الموقف.. كنت أقف مستترًا في مكان يبدو لي -أو كما تخيّلتُ- مأمونًا إلى حدٍ ما.. كانت طقوس غريبة هي التي أشاهدها.. صرخات وهدير عالٍ يعقبه تقدّم أحد تلك الأطياف المصطفة بالجوانب بكامل إرادته إلى منتصف البهو تمامًا حيث رمز غريب مرسوم بالأرضية.. وفجأة وبدون سابق إنذار تشتعل به النيران وسط صرخات بقيّة الأطياف ودون أن يتحرّك هو من مكانه.

جِن.. أشباح.. أرواح.. شياطين.. كُلّها مرادفات لمخلوقات دائمًا ما أثارت الرعب في نفس الإنسان حتى من مجرّد ذكر اسمها.. فما بالكم بالمواجهة.. قررت أن أخوض بقية التجربة كما تسير الأحداث فأنا في موقف لا أتحكّم فيه فيما يجري ولا مجال هناك للتراجع.

وقفتُ لأراقب تلك الكائنات الطيفية الغريبة وهي تقبل بكامل رغبتها على الانتحار حرقًا بنيران غير معلومة المصدر وبصرخاتٍ لا أعرف إذا كانت ألمًا أم حماسًا.. كانت الطقوس تتكرر بشكلٍ مستمر وأنا قابعٌ في جانب تلك الشرفة لا أملك القدرة على اتخاذ أي رد فعل.. وأي رد فعل يمكن أن يُتَّخذ في هذا الموقف، ومع مثل تلك المخلوقات.

***

وفي اللحظات التي اقترب فيها تفكيري من مرحلة اليأس تكرر موقفٌ سبق أن أصابني بالرُّعب وقت حدوثه، بينما بدا الآن وكأنه مفاجأه ساره.. اليد التي أحسست بها على كتفي وامتدت لتربت فوق رأسي أثناء العشاء مع الأصدقاء تكررت مره أخرى بنفس الطريقة.. كنت متأكدًا أنني لو التفتُّ لوجدت في هذه المرة شيئًا ما، فلم يعد هناك ما يلزم إخفاؤه وأنا في عقر دارهم.

مع سرعة ضربات قلبي قررت أن ألتفت بشكل فجائي وليكن ما يكون.. التفت فجأة ولأول وهله لم يكن هناك أحد سوى بقعه من ذلك المسحوق الأحمر مرة أخرى ولكن بكمّية أكبر من ليلة العشاء، ولكن لا شيء آخر، ولا أحد.. مع مرور الثواني لاحظت طيفًا بدأ يتكوّن

بالتدريج أمامي.. نعم ملامحه تتضح.. ثم أصبح مشكلًا بهيئة إنسان.. وبالتدريج لم يصبح طيفًا بل أصبح جسمًا بشريًا ملموسًا.. ثم كانت المفاجأة.. نعم إنها هي سيدة المصعد بثوبٍ حريريٍّ أبيض، وشعر ينسدل على أكتافها، وتغمر المكان بذلك العطر المميز.

تعمدت أن تكون عيناها هي أول ما يقع نظري عليه.. فالعينان كثيرًا ما تكشف خبايا تعجز الكلمات عن إيصالها، ولكن هل تنطبق تلك النظرية أيضًا على تلك المخلوقات؟ وأنا مازلت لا أعرف ماذا تريد وما هي نواياها، وإن كان قد غمرني إحساس غريب بالألفه تجاهها اكتمل بتلك الابتسامة التي ارتسمت على وجهها والتي كانت منفذ الراحة الوحيد الذي صادفته خلال تلك الساعات العصيبة الماضية.

كنت أقف في جانب الشرفة عندما مدت يدها برقّه بالغة لتمسك بيدي.. لاحظتُ -بشكلٍ عفويٍّ- أن هناك أصبعين من أصابع يدها مرتبطين من خلال خاتم يجمعهما معا، ويحمل نقشًا غريبًا.. لم تكن لمسات يدها نوعًا من السلوك الرومانسي كما تصوّرت، أو كما يعرف الجنس البشري، بل كانت وسيلة غريبة للحركة.

أحسست في لحظة أنني أتحرك بجانبها على وسادة هوائية بدون أن أقوم بأي حركة وقد ارتفعنا عن الأرضية بضع سنتيمترات.. كنت منساقًا تمامًا لأفعالها بدون القدرة على الاعتراض، أو حتى الاستفسار.. كانت رائحة العطر المميز تملؤني، وتدفعني لحالة غريبة من الهدوء، والانسجام بشكلٍ يدعو للدهشة.. توقَّفَتْ بعد عبور الممر الضيق واستدارت بشكلٍ ناعمٍ وكأنها تتحرك داخل المياه.

كانت المرّة الثانية التي أسمع صوتها بعد الكلمات القليلة التي سمعتها منها ليلة المصعد.. «لقد غامرتَ بالمجيء لعالمنا».. قالتها بلُغةٍ واضحةٍ وبأسلوبٍ منكسرٍ كما أحسست، ولكني ما زلت أشكّ في تلك الافتراضات.. فأنا في بعدٍ آخر، ومازلت لا أعلم إن كان ما ينطبق ويكون منطقيًا في عالمنا هو بالضرورة كذلك لديهم.

كانت أكثر الأسئلة إلحاحًا هي ما انطلقتْ بشكلٍ مباشر ومتتالٍ مع أول رد لي:

- «من أنتِ؟ وأين أنا؟»..

لم تفكّر كثيرًا.. جاءت إجابتها مُركّزة، وحاسمة، وبأسلوب اهتمام بالغ:

- (اسمي «شونجلام»، عندنا الأسماء لاتتكرر باستثناء المقطع لام فقط والذي يتكرر مع كل الأسماء في المملكة)..

انطلقتُ مستفسرًا:

- «أي مملكة؟»..

أجابتْ بهدوء:

- «المملكة التي غامرتَ للمجيء إليها.. مملكة «الجانلام».

أكملتْ شونجلام «والدي هو «الجنهال الأكبر»، وهو ما يقابل عندكم الكاهن الأكبر، أو من في مرتبته، أما أنا فأقوم بالتدريس في«المدرسة الجنشرية» وهي مدرسة تختص بتدريس علوم، وحياة، وتصرُّفات البشر.

إننا مملكة طيفية مسالمة تدعى«لام» تطلقون أنتم علينا -ياعالم البشر- «الجان».. نعيش معكم حياة مقاربة تمامًا لحياتكم، وموازية لها، لكن في بعدٍ آخر مازالت علومكم الإنسانية لم تستوعبه بعد، وهو ببساطة خليط مركب من الزمان والمكان»..

تذكرتُ لوهلةٍ ما حدث معي من التباس في الوقت عند دخولي الشقة، وإحساس النهار والليل السريع الذي صادفته بالممر الحجري.

- «ولكن ماذا عن تلك الأطياف التي تندفع لتحترق فجأة؟»..

تجهّم وجهها قليلًا ثم أجابت:

- إنهم فئة المغضوب عليهم، والمعاقبين، يُحبَسُون في تلك الممرات حتى يحترقوا ذاتيًّا، وهو ما مررت به أثناء قدومك..

- شونجلام.. قلتها تلقائيًّا بدون أية تحفظات:

- هناك عشرات الأسئلة بذهني...

ابتسمت ابتسامتها الرقيقة الغامضة:

- انتظر، ففي مملكة الجانلام ستعرف الكثير.

(٣)

مملكة الجانلام

لم يكن ما أثر في طفولتي من أحداثٍ لقصص أو أفلام مرعبة، وما كنت أنتظر أن يحدث الآن هو ما كان، فقد جاء ما رأيته مخالفًا تمامًا لتوقعاتي، ومغايرًا تمامًا لتصورات أبرع كتاب قصص الإثارة والخيال.

كنت في حالة ترقب لمشاهدة مملكة أسطورية، وها أنا أتحرك معها بالممرات الحجرية ممسكةً بيدي كأطياف في حالةٍ يصعب وصفها.. كانت صامتةً وكأنها تؤدي عملًا مهمًا وهي تنظر أمامها بنظرةٍ ممتلأة بنوعٍ من الثقة والفخر.

رغم نعومة ملمس يديها إلا أنني كنت أشعر فيه على فتراتٍ بنوعٍ من النبضات الغريبة التي تزداد وتقلّ بدون انتظام.. كانت الملاحظة التي فرضت نفسها عليَّ في تلك اللحظة هي إحساسي أنني مجبرٌ، أو مدفوعٌ -بشكل غير قابل للرفض- على التفكير بأمور، وذكريات لم يكن هذا الوقت يسمح نهائيًا حتى أن تخطر ببالي.. كانت ذكريات، وأفكار، وأحداث قديمة من مرحلة الطفولة تتزاحم بشكل فجائي بذهني، وتنتهي ليبدأ غيرها بشكلٍ متتالٍ.. ماهذا؟ هل يمكن أن يكون

هذا نوع من قراءة الأفكار يحدث عن طريق الاتصال الحادث من خلال يدينا المتشابكتين؟.. كان اقتناعي بتلك الفكرة هو ما دفعني لأن أسحب يدي منها بقوة.. تركتني لأفعل ذلك بينما لامست أقدامي الأرض، وتوقَّفَتْ فجأة تلك الأحداث التي تدور برأسي.. التفتت إليَّ قائلةً:

- لقد تركتك لتعرف بمفردك، وقد جاء استنتاجك صحيحًا، فنحن في عالمنا نعتمد أكثر على المحاورات التخاطرية، وهي تتفادى الكثير من الأخطاء الكلامية سواء المقصودة، أو غير المقصودة..

كان ردها مقنعًا لدرجة جعلتني أقدّم لها يدي مرة أخرى لتمسك بها، ونرتفع لنبدأ الحركة تزامنًا مع دعوتها لقراءة ما تريد من أفكاري بدون أي تحفّظ.

ابتسمْتُ، فأنا الآن لستُ في حاجةٍ لطرح الأسئلة المتزاحمة برأسي.. فستعرف هي كل شيء بدون حتى أية محاولات لصياغة تلك التساؤلات.

كانت شونجلام تتحرك في تلك الممرات بشكلٍ ناعمٍ حتى أني أحسست أننا تجمُّعٌ من الضباب يخترق الممر.. لم أنتبه إذا كنا نمرّ في

نفس الأماكن التي مررت بها أم لا.. فقد سلمتها دفة القيادة، ومن يعرف الطريق أفضل منها؟.

انتبهت فجأة لما يحدث.. فقد كانت مفاجأة مذهلة، ولولا أنني قد هُيِئتُ نفسيًا لذلك لأصابني الإغماء فورًا مع عدم قدرة العقل على استيعاب ما يحدث.. كنا نمرّ بتلك اللحظة من باب الشقة التي كنت بها في اتجاه الخروج.. ما هذا؟ وكأني فقدت وقتيًّا الإحساس بالاتجاهات أو حتى تمييزها.. ولكن هذه المرة كانت المعالم الطبيعية التي أعرفها.. فالشقة المقابلة موجودة وكذلك المصعد.. وكأنه لم يكن هناك أي وجود لذلك الممر الحجري والأحداث السابقة.. هو نفس المكان كما تركته.. العمارة بكامل تفاصيلها.

من الطبيعي أن أفترض أن ما سبق كان حلمًا، لكن كيف وهي مازالت تمسك بيدي في اتجاه المصعد؟

كان المصعد يهبط بنا من الدور التاسع بعد أن تركت شونجلام يدي وأصبحت أتحرّك حركة طبيعية في نفس الأماكن التي افتقدتها خلال الفترة القليلة الماضية، والتي لم أستطع نهائيًا تقدير ما استغرقت من الوقت.. لم أكن أعرف إلى أين يتجه المصعد هابطًا.. كان الوقت يبدو متأخرًا ليلًا حين توقف المصعد بالدور السادس، وهو الدور الذي

تقع به شقتنا.. اتجهت شونجلام وأنا أتبعها ويتبعني الفضول إلى باب شقتنا.. نعم هي بلا شك.. هل تقصد إيصالي حتى هنا ثم تتركني لتعود؟.. كانت صامتة وتنظر أمامها لينفتح باب الشقة مع دفعة رقيقة منها.

كانت شقتنا بكافة تفاصيلها هي ما نحن فيه، لم يتغير بها شيء نهائيًا باستثناء عدم وجود أحد سوانا.. اتجهتُ متجوّلا بالشقة لأفتح باب حجرة نومي.. لم يكن هناك أحد.. توجهت لحجرة نوم خصصت للضيوف.. كان هناك خيالًا ما لشخص يرتدي سروالًا فضفاضًا ذا رسومٍ وزخارفَ كثيرة التفاصيل، يبدو واقفًا في الظلام بجانب السرير مغمض العينين.. مع انعكاس شعاع ضئيل من الضوء جاء متسرّبا من خارج الحجرة على وجهه، تأكدتُ أنه ذلك الوجه الذي شاهدته مرتين سابقًا، إحداهما عندما ارتسم وجهه بشعاع الضوء بشكل ملامح كريهة على باب الشقة المقابلة بالدور التاسع، والمرة الثانية عندما رأيت صورته مجاورة لشونجلام في لوحة زيتية ضخمة بالحجرة الفارغة بشقة الدور التاسع.

لم يكن الوجه كريهًا بالشكل الذي رأيته به في المرة الأولى كصورة منعكسة على البوابة.. كان عجوزًا ارتسمت على ملامحه علامات

الحكمة والوقار، يبدو واقفًا في حالة سُبات، أو نوم غريب، بينما كانت شونجلام تقف خلفي لتُجيب فورًا على ما قد يخطر بذهني من تساؤلات:

- هو والدي الجنهال الأكبر.. ببساطة نحن نسكن في هذا المكان، أقصد شقتكم مؤقتًا.. لايجب أن يحدث أي اتصال بيننا وبينكم، وعلى هذا فإنك الآن لن ترى أي أحد من أفراد أسرتك لأنك في البعد الخاص بنا.. ما ستراه هو فقط ما نتعامل نحن معه من جماد بالإضافة لعشيرة الجانلام بنفس الصورة التي تراني بها الآن.

كانت شونجلام تبدو في هذه اللحظة بشكل بشري كامل بحيث لا يشك أحد على الإطلاق أنها من كيانٍ، أو بعدٍ آخر.. لم يكن يبدو عليها أبدًا أية مسحة من التعب، أو الإرهاق، والذي كان على الجانب الآخر قد اصابني من جرّاء ما سبق من أوقات عصيبة.. ووصفها هو اختبار قاسٍ لأفضل الشعراء إجادة.. فلم يكن -على ما أعتقد- هناك وجود لمفردات متاحة بأي لغة في عالمنا يمكن أن تعبر بصدق عن مدى جاذبيتها وسحرها.

أحست شونجلام بمدى التعب، والإرهاق الذي أعاني منه فدفعتني للنوم، ولم أكن -كما ذكرت- لأنام إلا في حجرة نومي.. نعم كانت هي.. تمامًا كما تركتها متوجِّها لحفل العشاء مع الأصدقاء.

على الرغم من كثرة الأحداث وإحساس الترقُّب للأحداث التالية، وترابط كل الخيوط في هذا الجو المثير استغرقتُ فورًا في النوم.

***

بدأ صباح اليوم التالي مثيرًا.. عند استيقاظي كان حلم الليلة الماضية يسيطر على تفكيري.. كنت متعجبًا، فلأول مرة أشعر أنني عشت حلمًا مكتمل الأحداث بهذه الصورة وبمثل تلك التفاصيل.. أصوات.. روائح.. حتى الإضاءة كانت جزءًا من هذا الحلم.. لكنني في لحظة اكتشفت أنني لا أتذكر ما حدث بالأمس.. الحلم فقط بكافة تفاصيله هو ما أتذكّره.. لكن كيف؟ أيعقل أن يكون ما عشته ليس حلمًا؟..«ليس حلمًا»، ترددت هذه العبارة بذهني عدة مرات وأنا أفتح باب غرفتي متخبطًا بين الواقع والخيال.

كانت الغيوم التي كست السماء والستائر المغلقة بالشقة عاملًا أساسيًا في إضفاء نوع من الغموض، والرهبة وكأنني أكمل أحداثًا سبق أن توقّفت لفترة وجيزة.. كانت هناك أصوات لأدوات مائدة تنبعث

من حجرة السفرة المغلقة والتي غالبًا ما كانت تستعمل في دعوات العشاء، أو المناسبات الخاصة.

كانت السفرة من طراز كلاسيكي، ورثتها والدتي عن والدتها، وربما كانت جدتي أيضًا قد ورثتها عن أمها.. كانت ذات مائدة خشبية كبيرة من اثني عشر مقعدًا مكسوًّا بالقطيفة الحمراء، وحوائط عليها مجموعة من اللوحات الزيتية مع نجفة ضخمة من الكريستال بمنتصف السقف، كانت الستائر الثقيلة تمنع نفاذ معظم الإضاءة الخارجية.. كان جو الحجرة غامضًا حتى أنني كنت دائمًا أمزح مدَّعيًا أن الجان يسكنها.

عندما فتحت الأبواب المنزلقة للحجرة تأكدتُ فورًا أن ما حدث في الليلة الماضية لم يكن أبدًا حلمًا.. كان المشهد يبدو كلوحة رسمت على يد فنان لتكون إحدى اللوحات الخالدة من حقبة العصور الوسطى كانت المائدة ممتلأة بأصناف متنوّعة من الطعام مرتبة بعناية بالغة، وفي نهايتها كان يقف الجنهال الأكبر بجانب امرأة قصيرة القامة ذات شعر أبيض، وأمامهم كانت تقف شونجلام في تكوين فنّي متميز ممتزجًا بجوٍ من الغموض والرهبة:

- «يمكنك أن تتناول ما تشاء»، قالتها السيدة القصيرة التي تقف بجوار الجنهال الأكبر بصوتٍ هادئ، وبنبرةٍ حادة..

كان من الواضح أنها مخلوقات لا تتناول الطعام، فقد توجهت أنظارهم في تلك اللحظة وفي نفس التوقيت إلى السقف.

لم أكن في موقف أشتهي فيه أي طعام على الرغم من طول الفترة التي لم أتناول خلالها أي شيء.. لكن الغريب أن رائحة هذا الطعام كانت تتسلل إلى داخلي فقط من مجرد رؤيته، وبالتدريج اكتشفت أنني جالس لأتناول أشهى وجبة يمكن أن أكون قد تذوّقتها من قبل.. لم يتغير وضع عائلة الجنهال الأكبر أمامي من الصمت، والنظر للسقف حتى انتهيت تمامًا من تناول الطعام.. بدأ الجنهال الأكبر معي حوارًا حاسمًا، ومرتبًا ترتيبًا دقيقًا بلغةٍ دقيقةٍ، وواضحةٍ، وألفاظ منتقاة لا تحمل أي لبس أو غموض:

- أنت هنا لسببٍ ربما لم تعلمه بعد.. لكنه لن يكون.. لقد حدث هذا الارتباط سابقًا بين عالمنا، وعالمكم، وكانت نتائجه كارثية.. إنني لن أسمح لشونجلام بالارتباط من عالم الإنس، إن اندماجها في دراسات عالم البشر جعلها تتصور أن الأمور سوف تسير معها دائمًا بشكلٍ طيب.

لم تكن شونجلام قد أبدت سابقًا أي تلميح ظاهر عن تلك المفاجأة التي أشار إليها والدها.. بينما كانت نظرتها إليَّ في تلك اللحظة تحمل العديد من المشاعر الرومانسية التي يتعامل بها البشر، ولكنها

كانت النظرة الثاقبة. لا أدري ما حدث بعد تلك النظرة.. لم أعد أسمع كلمات الجنهال الأكبر..لا أدري هل هو نوع من أنواع السحر أم أنني كنت أمتلك فعلًا تجاهها تلك المشاعر الفيّاضة المدفونة.. ولكن متى ونحن حتى لم نتبادل حوارًا يتعدى بضع دقائق؟! أو أنه ربما كان التواصل الفكري الذي حدث بيننا في الممر هو الذي اختصر الكثير من أوقات تستغرقها تلك البدايات الرومانسية في عالمنا، عندما أعدت التركيز في حوار الجنهال كان واضحًا أن الحديث قد تحوّل إلى بعض مشكلات مملكة الجانلام، أو ما قد نطلق عليه في عالمنا المصالح المرتبطة بدروب الحكم والسياسة.. كنت متعجبًا من كون مثل تلك الأنواع من المشكلات قد تتواجد في مثل هذه العوالم الخفية:

- «أرجو أن تكون قد وصلتك رسالتي، فما رأيك؟».. قالها الجنهال بلهجة حاسمة..

كان الرد في هذا التوقيت أصعب ما يمكن، ولو كان قبل نظرة شونجلام لكانت الإجابة أبسط بكثير.. فقد تغاضى ذهني الآن عن كونها ليست بشرًا ومن عالم مختلف عليّ..

- «لتؤجل قرارك للغد، وأنت ضيفنا في مملكة الجانلام حتى تقرر، وأرجو أن لا تجعلنا نحن من نقرر»... قالها ردًا على صمتي، وبنبرة تحمل شيئًا من التهديد.

توجّه الجنهال الأكبر خارجًا من الغرفة تتبعه السيدة التي كانت تبدو أنها إحدى المقرّبات بشدة منه، إن لم تكن والدة شونجلام.. لم أشغل نفسي بذلك، فشونجلام مازالت في الغرفة ورغبتي في الحوار معها لا يعوضها توارد الأفكار في هذه اللحظة.. هل يعقل بهذه البساطة أن تكون المتواجدة معي الآن في نفس الغرفة الموجودة في شقتنا هي مخلوقة من الجان أشتاق لأتبادل معها أطراف الحديث؟.. نعم، كان هذا هو الواقع، أو الخيال لا أدري.

***

- كانت أول مرة أبادر أنا بالحديث معها:

«شونجلام، أشعر أنني أقصد أن إحساسي..».. كانت الكلمات تخرج مني بشكلٍ غير مرتب.. كنت أشعر بحالةٍ غير عادية من التوتر، وكيف لا؟ فهناك خليط من الأحاسيس المتباينة والتي يصعب اندماجها معًا في عالمنا.. إنه الإعجاب مقترنًا مع الفضول والخوف في جوٍ خيالي على أرض الواقع.. إنه مزيجٌ كيميائي سحري يفوق استيعاب البشر.

«إنني أعي تمامًا ما يدور في ذهنك من تساؤلات، ولكن مايغيب عنك أن تفسيراتك مبنية على حسابات عالمكم».. كان واضحًا لشونجلام أنني لم أستخلص تمامًا ما تقصده من ذلك، فتابعت قائلةً:

«إن المشاعر عندنا تبدأ من (الجنس الناعم)، وعلى قدر درجة إحساسه بالإعجاب يُصاب الطرف الآخر بنفس الإحساس، وبنفس الدرجة.. وهذا ما حدث هنا».. ابتسمت ابتسامة يعلوها الحياء الذي اكتشفتُ أنه من سمات (الجنس الناعم) بشرًا كان أم جانًّا.

كان الظلام قد بدأ يزحف، وهي بداية حالة النشاط في مملكة الجانلام.. كان طلب شونجلام لي بمرافقتها إلى المدرسة الجنشورية فرصة أشبعت فضولًا دفينًا داخلي لمشاهدة هذا العالم..

«فلنكمل حديثنا في الطريق إلى المدرسة الجنشورية».. قالتها شونجلام، بينما كنت في اشتياق غامر لمعرفة طبيعة وشكل الحياة في مملكة الجانلام.. عندما تقدمت لتمسك بيدي لنتحرك مرة أخرى بتلك الوسادة الهوائية المذهلة، كانت نظراتي تجاهها قد بدأت تأخذ شكلًا مختلفًا حتى رغم معرفتي بطبيعة ذلك الإحساس المصطنع، والذي لم يكن يبدو لي كذلك.

لم يكن المرور من خلال الأبواب هو فقط ما أذهلني، ولكن أيضًا القدرة على المناورة بسرعة ونعومة فائقة قبل وبعد المرور.. لم تكن حيلة، أو وسيلة علّمتها لي شونجلام، ولكن يبدو أن مجرد وجودي معهم جعل الكثير من قوانين مملكتهم تنطبق عليّ.

كانت مملكة الجانلام، وإن كانت تتطابق في تفاصيلها بما أعرفه، إلا أنها أخذت طابعًا له لمحة سحرية غامضة.. كان الجو يحمل نفس الضباب الناعم الذي خرج من العين السحريّة عند كسرها، والذي أعطى الرؤية صفاءً غامضًا.. كان شعاع القمر يبدو قويًا، ومركّزًا بشكلٍ لم أعتده.. لم ألمح نهائيًا سيارات بالشوارع.. كانت وسائل النقل التي تبدو أمامي هي مركبات تشبه العربات الملكية التي تجرها الخيول في العصور السابقة في عالمنا، وإن كان لا وجه للمقارنة بين الوسيلتين.. كانت عربات بشكل شبه بيضاوي تجرّها أربعة أو أكثر من كائنات لها شكل قبيح، أقرب ماتكون للتنين الذي نعرفه في عالم الروايات الأسطورية، لتدفعها فترتفع عن الأرض بسرعةٍ فائقة.

كنت متأكدًا تمامًا أن الأعداد البسيطة، والتي تسير مرتفعة عن الأرض، هم بالطبع ليسوا من البشر.. وكأن عالمنا قد تم احتلاله وقُضي تمامًا على الجنس البشري.. لكنني تذكرت أننا في بعدٍ آخر لا يمكن فيه

أن يرى الجنسان بعضهما.. عندما توجّهت أنا وشونجلام خارجين من المدخل كانت إحدى تلك العربات تقف مرتفعة وبنفس المستوى الذي كنا نتحرّك فيه وهو ما عكس مدى ذكاء تلك الكائنات.. انطلقت العربة بشكلٍ فُجائي.. كنت أجلس بجوار شونجلام بداخل العربة على أريكةٍ جلديّةٍ وثيرةٍ يكسو أجزاء منها شعيرات لحيوان ما.. ورغم رغبتي في التمتع بمشاهدة هذا العالم أثناء سير العربة إلا أنها كانت أيضًا فرصة مناسبة لاستكمال الحوار مع شونجلام.

***

كنت قد اكتسبت المزيد من الثقة والقرب تجاهها عندما بادرتُها بسؤالي الحاسم الذي كان يدور منذ فترة بذهني:

- «متي بدأ اهتمامك بي؟.. ولماذا أنا بالتحديد؟..» كيف غاب عن ذهني أنهم يسكنون معنا في نفس الشقة؟.. كان هذا هو معنى إجابتها.. بينما استطردت هي:

- «كنت أتابع كل ما يوجد في حجرتك من أوراق.. ما تقرأه، ما تكتبه.. حتى أوراق «الدشت» التي تدوّن فيها بعض الملاحظات، أحيانًا كنت أقرأها»..

تذكرت في تلك اللحظة كيف أنني في الفترة الأخيرة كنت أعاني من ضياع، وعدم ترتيب أغراضي الخاصة بدون سببٍ واضح.. أضافت شونجلام بنبرة هادئة:

- «لقد غامرت قبلك بالذهاب إلى عالمكم كان لا بد أن أقابل من له مثل هذا الأسلوب الذي أعجبني في تفكيرك، وتناولك للموضوعات، وذلك على قدر ما أمكنني من الاطلاع.. كل هذا كان -بالطبع- باعتبارك نموذجًا من عالم البشر في نطاق دراستي.. لكن الموضوع تطوّر فجأة، خاصة بعد أول لقاء لنا»..

أجبت مسرعًا:

- «أتقصدين ليلة المصعد؟»..

- «تمامًا، وفي المرة الثانية تعمّدت أن أشارك في الاحتفال بعيد ميلادك»..

كانت طريقة شونجلام في التعبير وخروج الألفاظ رائعة.. كانت تختلف كليًّا عما يعرفه البشر، وكان توظيفها للنظرات، والإيماءات، والوقفات جزءًا متكاملًا من ذلك، يتم في تناغمٍ مذهل، وكأنك أمام عمل موسيقي متفرّد يعزف باحترافية شديدة.

***

كانت فكرة العودة تؤرِّقني بشدة، خاصـة بعـد نـبرة التهديـد التـي ألمح بها الجنهال الأكبر، وفي نفس الوقت كان من الصعب أن أطلـب أو أناقش ذلك مع شونجلام، وهو ما دفعني أن أحـاول معرفـة المزيـد عـن تلك الممـرّات التـي نقلتنـا إلى هـذا البعـد بـشكلٍ يبـدو كنـوعٍ مـن أنـواع الفضول.. أجابت شونجلام:

- «الممرات الجنشورية هي مصطلح متعارف عليه في عالمنا، يطلـق عـلى أي ترابط بين الجن والبشر.. هـذه الممـرات تـربط بـين عالمنا وعـالمكم، ومنها الممر الذي يربط الشقة الموجودة بالـدور التاسـع، وهنـاك العديـد منهـا عـلى نطـاق واسـع في كافـة بقـاع عـالمكم.. ويقـدر عـددها فهنـاك أضعاف هذا العدد من البشر يعتقـدون بهـا، ويبحثـون عنهـا، وإن كنـتم نادرًا ما تكتشفونها.. أرجوك.. لاتحاول أن تجازف بعبور تلـك الممـرات بمفردك، فهناك خطر داهم بها من الجانب المتجه لعالمكم»..

لم أعرف عما تلمح بالتحديد، ولكن بدا مـن طريقتهـا أن الممـرات بها مخاطر ما.. ورغم صدمتي بسماع ذلك فإنه من ناحية أخـرى ظهـر - بشكلٍ لايدع للشك مجالًا- مدى حرصها على سـلامتي بـشكلٍ خـاص جدًا.

كانت العربة الغريبة التي تقلّنا تنطلق بسرعةٍ متخذة طريقًا تعرفه جيدًا.. كانت الكائنات الغريبة التي تجرّها تصدر صيحات عالية على فترات، بينما تخترق العربة الضباب الكثيف ليغطيها في بعض الأوقات وينقشع في أوقات أخرى، كانت كافية لأختلس بضع نظرات، ومن خلال النافذة لاحظت أن العربة تسير بمحاذاة ضفاف النيل متجهة لإحدى ضواحي القاهرة.. كان توقعي بمحلّه، فقد وصلت العربة فعلًا لضاحية المعادي لتعبرها إلى أطرافها الصحراوية لتنحرف وتبطئ من سرعتها، لتقف أمام «فيلا» مهجورة كانت تبدو مثالية لتصوير أعمال الرعب السينمائية .

(٤)

في المدرسة الجنشورية

«تـم اختيارهـذا المكـان ليكـون مقـرًّا للمدرسـة الجنـشورية طبقًـا لحساباتنا في مملكة الجانلام».. أبدت شونجلام هذه الملاحظـة لي سريعًـا وهي تهمّ بالخروج من العربـة.. دفعتنـي تلـك الملاحظـة لأن أركّـز عـلى تفاصـيل هـذا المكـان الغـامض.. كانـت (فـيلا) ضـخمة مـن الطـراز القوطي، قد يطلق عليها البعض مجازًا قصرًا، بـدت كأنهـا مهجـورة منـذ فترة طويلة، زاد على ذلك كونها تقع بمنأى عن أي مبانٍ أخرى، ويحيط بها مساحة صحراوية كبيرة نبتت فيها حزم مـن النباتـات الـصحراوية.. كانت (الفيلا) محاطة بسور، وبوابة ضخمة من الحديد المشغول بالعديد من الزخارف المعقّدة بينما تبعـد (الفـيلا) عـن الـسور الحديـدي بمـسافة شاسعة بحيث تبدو وسط شعاع القمر النافذ من الـضباب الـذي يكـسو الجو كجزء من الخيال.

وقفـت العربـة في صـف ممتـد مـن العربـات المماثلـة أمـام البوابـة الحديديـة الـضخمة... ابتَـسَمْتُ، فقـد كـان مـشهدًا مقاربًـا للمـدارس بعالمنا؛ في الصباح.. أولياء أمور الطلبـة يتأكـدون بعـد توصـيل أطفـالهم

من عبورهم بوابة المدرسة بسلام ثم يهمّون بالانصراف.. لم تكن شونجلام قد ابتعدت، فقد ظلّت واقفةً تنظر لي ويبدو أنها قررت أن تعطيني الفرصة للتأمّل والمشاهدة.

اقتربت شونجلام مِنّي لتجيب على سؤالٍ كان على وشك أن ينطلق مني فزعًا.. وعلى الرغم من ذلك حملت إجابتها حقائق مذهلة:

- نعم، الأعمار الصغيرة عندنا وحتى سن مائتي عام لا تملك القدرة على اتخاذ أشكال مخالفة لشكلها الحالي الذي تراها به الآن».

ما هذا الخيال الذي أراه؟ أشكال شبه طيفية، قصيرة القامة، لها أذنان كبيرتان، وعينان واسعتان لاتظهر أقدامها، تتحرك أيضًا مرتفعة قليلًا عن الأرض، وقد تكدَّست عند البوابة بشكلٍ هيستيري للدخول.. إنهم أطفالهم الذين لم يتعدوا بعد المائتي عامًا!.. أصابتني في تلك اللحظة نوبة من الضحك عندما صاحت شونجلام لأحد تلك الأطياف عندما احتك بها أثناء تحركه بسرعة:

- «احترس يا إنسي».. أمسكت شونجلام يدي مرة أخري لنتحرك إلى داخل (الفيلا)، أو المدرسة الجنشورية.. كان -فعلًا- اختيارًا موفقًا لمدرسة.. مدخل واسع، وبهو له قبة تكتسي بالرسومات والزخارف الجدارية، مع بعض الغرف المغلقة، وسلّم رخامي ضخم يتوسّط البهو

صاعدًا للدور الأول حيث العديد من الأجنحة، كل منها يشمل مجموعة من الغرف.. كان دخولنا بعد انتهاء التكدّس والزحام الذي حدث أمام البوابة الرئيسية.. تحرّكت شونجلام بثقةٍ مخترقةً البوابة الحديدية، وعابرة للمساحة المحيطة بالفيلا، والتي كان من المفترض أن تكون حديقة، لم يتبقّ منها سوى بعض الأشجار الضخمة المعمَّرة، ومجموعة من التماثيل الحجرية في أماكن متفرّقة.. كان المكان يعتمد بشكلٍ تام على إضاءةٍ غير تقليدية، حيث يتسرّب شعاع القمر من النوافذ الزجاجية في أماكن متفرقة، ليعطي توزيعًا متساويًا، وكافيًا للإضاءة.. ويبدو أن كمية الإضاءة التي يعتمدون عليها كانت أقل بنسبة كبيرة عن عالمنا.. تمامًا في وسط البهو الموجود بالمدخل توقفت شونجلام، والتفتت لتبوح لي بمفاجأة غريبة:

- «أرجو أن لا تفزع عند لقائك بالطلبة»..

تعجبت، فقد رأيت معظمهم منذ قليل، ومرّت الأمور بسلامٍ رغم اختلاف أشكالهم، وقد أوضحت لي أسباب ذلك.. لكن شونجلام أكملت:

- «لا.. أقصد أن رد فعلهم عند رؤيتك ربما يكون مزعجًا قليلًا لك».

أثـارت ملاحظـة شـونجلام بـداخلي الريبـة.. كيـف يمكـنهم أن يفرّقوا بـين مـن يكـون مـن عـالمهم وبـين البـشر؟.. لم تكـن هنـاك إجابـة واضحة لذلك بذهني، إلا أنني تذكّرت فجأة أنني لو تركت يدها فإنني لن أستطيع أن أرتفع عن الأرض.. وهي طريقة تحركهم، بصرف النظر عن العمر.. ولا أعتقد أنها سوف تستمر في ذلك خاصة أثناء وقت التعامل مع طلابها.. وفي الوقت نفسه فإنني لم ألحَظْ أحدًا منهم جالسًا، وهو ما قد ينقذ الموقف.. إذن فهناك ورطة قادمة.. ابتسمْتُ.. كلمة «ورطة» لم تعد تعني شيئًا بالنسبة لي بعد ما صادَفْته منذ دخلت في هذه المغامرة.. تحركنا معًا بطريقتهم المعتادة مرتفعين عن الأرض إلى الدور الثاني.. سلكت شونجلام أحد الممرات، وتوقفت أمام باب إحدى الحجرات.. كان يصدر منها همهمات، وأصوات متداخلة بصخب شديد.

لم تكن شونجلام ولا غيرها هناك -كما ذكرت- في حاجة لفتح الأبواب، وكذلك كنت أنا، لكن فقط في حالة تشابك أيدينا.. مررنا بنعومة من خلال الباب لأجد نوعًا من أنواع فصول الدراسة للطلبة، أو تلك الكائنات التي شاهدتها عند دخولي هذا المكان، تقف متجمّعة في دائرة مفتوحة، مطلقين أصوات همهمات متتالية عرفت بعدها أنها

نوع من أنواع التحية عند مقابلة شخصية هامة، وهي بالطبع شونجلام وأنا برفقتها باعتباري ضيفًا.. كان الواضح أنهم من الطلبة الدارسين للبشر في المراحل الأولى من المدرسة الجنشورية.. كنت في حالة ترقّب شديد انتظارًا لرد فعلهم عند اكتشافهم كوني من البشر.. وقد كان أمرًا لا يمكن إخفاؤه في هذا التوقيت.

قبل أن تترك شونجلام يدي أخبَرَتْهم أن معها ضيفًا مهمًا طالما انتظروه وأرادوا أن يشاهدوه في صورته الحقيقية.. كانت الصيحات تتصاعد بفزع أثناء المقدمة التي قالتها شونجلام.. كان واضحًا مدى الرعب الذي يصيبهم فقط من مجرد ذكر كلمة «بشر».. كان مجرد ملامستي للأرض بعد أن تركت شونجلام يدي بمثابة القشّة التي قصمت ظهر البعير.. ما هذا؟.. ماهو الفزع في ذلك؟.. وما كمية الرعب هذه التي أصابتهم؟.. كانت مشاهدة تأثير الرعب عليهم خيالًا لم أكن أتوقع مشاهدته.. استدارت تلك الكائنات فجأة بشكل فوري ليصبح وجهها للحائط مع انبعاث سوائل خضراء بشكل غزير من حولهم.. كل هذا مع استمرار وارتفاع حدة الصيحات المتتالية.

استمرّت بعض تلك الكائنات المفزوعة تختلس النظر إليّ بين لحظة وأخرى لتعود مرة أخرى إلى صياحها المفزع.. وكأن شونجلام تعرف

تمامًا ما سوف يحدث بعد فترة، فقد تركتهم لتقلّ حدة الصيحات تدريجيًا حتى سكنت تمامًا باستثناء بعضها يصدر متقطعًا على فترات:

- «إن الفرصة التي أمامكم هذه قد لا تتكرر مرة أخرى إلا بعد فترة طويلة».. قالتها شونجلام بحدةٍ شديدة، ثم أكملت:

«إنكم محظوظون لأنكم سوف تقابلون آدميًا حقيقيًا في بداية دراستكم، فأنا نفسي لم أقابلهم إلا بعد وقت طويل من انتهاء دراستي».. هدَّأت كلمات شونجلام من روع تلك الكائنات إلى حد كبير، واستدار معظمهم لينظر إليّ بذهولٍ مختلط بمسحة من الخوف.

كنت الوحيد بالحجرة الذي يرتكز على الأرضية بينما كان الجميع يرتفع بمسافات تتراوح ما بين عشرين، و ثلاثين سنتيمترًا.. اقتربت مجموعة من تلك الكائنات متجمعة حولي بحذر.. اتسعت عيونها لتحدق بي بتركيزٍ شديد، لتعود وتستدير مرتفعة قليلًا لتبتعد إلى أحد جوانب الحائط.. على الرغم من أن هؤلاء الطلبة في هذا الفصل الدراسي التمهيدي لدراسة عالم البشر إلا أن أسئلتهم جاءت دسمة، وتحوي رغبة شديدة في الاطلاع على عالمنا.. كانت شونجلام هي الوسيط في نقل تلك الأسئلة بعد تجمُّع كل الطلبة حولها، وبمجرد لمسة

واحدة ليديها انتقلت تلك الأسئلة إليها.. هكذا ببساطة، وأبسط من أي وسيلة أخرى نعرفها بعالمنا.

كان وقع تلك الأسئلة عند انتقالها بأسلوب توارد الخواطر يظهر على وجه شونجلام.. فمرة ابتسامة، ومرة تجهّم، ومرة شرود، وهكذا كان تعبيرًا متناغمًا مع شكل السؤال.. عند انتهائهم من طرح الأسئلة على شونجلام، باعتبارها وسيط نقل تلك الأسئلة لي، تكدس الجميع في ركنٍ من أركان الحجرة، واتسعت أعينهم بشكلٍ غريب، مع تركيز واضح تجاهي، انتظارًا للإجابات.. كان من الصعب جدًّا أن تختصر تاريخ البشرية من خلال إجابات على أسئلة، وإن بدت بسيطة، إلا أنها كانت في مجملها تريد أن تعرف أي شيء وكل شيء عن عالم الإنس.. طرحت شونجلام الأسئلة بشكلٍ دقيقٍ ومرتب.. وبدأت أنا في الإجابة بشكل حذرٍ إلى حد ما، ثم انطلقت بإسهاب حسب ما أمكنني من معلومات مختزنة لدي خاصة أن الأسئلة شملت معظم فروع الحياة، والنشأة، والتطوّر.

***

نحن وهم نمتلك نفس القدر من الرعب والإحساس بالغموض تجاه بعضنا البعض.. والمنازل المسكونة بالبشر لاتمثل مشكلة نهائيًا..

فكل المساكن التي نسكنها هم موجودون فيها.. ولكننا لا نرى بعضنا البعض..

«هناك – بالطبع – بعض الحالات الخاصة التي يحدث فيها اتصال بين العالمين، ومنها وجود ضيفنا العزيز هنا اليوم، ولكن كما ترون لا يوجد أي سبب يدعو للقلق من ذلك، فدرجة ترقّبه تجاهنا مساوية تمامًا لنفس درجة الترقب عندنا، وهو ما يوفر دائمًا نوعًا من الاتزان بين العالمين».. كانت إجابة شونجلام مثالية بحيث تبدو أنها تعرف عن البشر أكثر من معرفتي، ولم أكن لأتمكن من الإجابة عليهم بمثل تلك الإجادة.

انتهى موعد الفصل تزامنًا مع أصوت طيور واضحة، وكأنها مهيأة لتحديد موعد انتهاء الفصل..خرجتُ من الحجرة بشكلٍ طبيعي تتبعني شونجلام حتى الممر الخارجي قائلةً:«هناك اجتماع عام للجميع مع المدراشية»..

لم أكن قد سمعت هذا المصطلح سابقًا، لكن شونجلام لم تتركني أحاول استنتاجه:

- «المدراشية هي الواعدة، والمسؤولة عن المدرسة الجنشورية، وهي في نفس الوقت عضو في المجلس الأعلى للمملكة الذي يضم أيضًا والدي

الجنهال الأكبر».. تحرّكتُ أنا وشونجلام كالعادة مرتفعين عن الأرض، وضمن مجموعات كثيفة تتقابل مع بعضها من الممرات المختلفة لتأخذ طريقها إلى الدور تحت الأرضي، أو كما نطلق عليه «البدروم».. كان المكان متسعًا بشكل كافٍ ليصلح قاعة ضخمة للاحتفالات، متخذًا شكلًا طوليًّا، اصطفت في واجهته سيدة عجوز لها شعر أحمر ناري، تبدو على وجهها التجاعيد بشكلٍ كثيف، ترتدي عباءة زرقاء اللون، وعقدًا طويلًا من أحجار مضيئة.

كان واضحًا أنها المدراشية، وبجانبها كان هناك ثلاثة، أو أربعة من المساعدين بزيٍّ أبيض، وأطواق عاكسة تحيط بالرأس.. كانت شونجلام تمتلك في المدرسة الجنشورية مكانة مميزة حتى أن مكانها كان محددًا بجانب المدراشية.. شقت شونجلام التكدس الموجود وأنا بصحبتها حتى موقعها في مواجهة الطلبة.. كنا مستقرَّيْن بثباتٍ نعلو عن الأرض بمسافات متساوية، بينما كان طلبة المدرسة يهيمون أمامنا بشكل عشوائي.. كانت المدراشية تنظر طوال تلك الفترة إلى الأرض.. وفي لحظة تحرّك وجهها لتنظر إلى الطلبة.. تبدّلت الحال سريعًا، وأصبح النظام هو السمة السائدة أمامنا.

ارتفعت المدراشية بشكل يبدو أنه يتناسب مع مركزها الرفيع لتصبح أعلى من جميع الحاضرين، وتوجّهت الأنظار إليها بما فيهم أنا في انتظار كلمتها المرتقبة.. لم تكن الكلمة المرتقبة كما توقّعت، وهو ما كان السمة السائدة منذ تواجدي في عالمهم.. كانت أغلب مشاهداتي تجيء غير متوقعة بالمرّة.. بدأت المدراشية بالتلويح بشكل دائري باستعمال كلتا اليدين.. ثم نظرت أمامها بشكلٍ مفاجئ ليتبدل لون وجهها إلى اللون الأزرق وسط تنهّدات من الحاضرين على فترات بدت وكأنها بديلًا عن تصفيق الإعجاب في الخطب العامة.. بدأت أستوعب الأمر بالتدريج، فالمدراشية تنقل للحاضرين الخطاب بطريقتهم في توارد الأفكار.. كانت لحظات خيالية ممتلئة بالغموض، ورغم عدم تواصلي معهم في هذا النوع من الاتصال إلا أنني أحسست أن الخطاب يحمل محتوًى خطيرًا.. بدأت أتعجل انتهاء المدراشية من إلقاء كلمتها انتظارًا لمقابلة شونجلام مرة أخرى باعتبارها وسيلة لترجمة ما يحدث، خاصة بعد ملاحظتي سرعة انصراف الطلاب في حال من الذعر، وعدم النظام.

يبدو أنني جلبت الشر لطائفة الـ«لام» المسالمة، فمملكة الجانلام كلها أصبحت مهددة.. دارت هذه الهواجس بذهني خلال ترجمة

شونجلام لما قالته المدراشية... كنت في احتياج أن أعرف تفاصيل هذا الخطاب كما وصلهم تمامًا.. لم تبخل شونجلام بذلك، وأخذت تعيد تفصيلًا ما نقلته لهم المدراشية بشكل حوار وكأنني أستمع إلى ترجمة فورية مباشرة قالت شونجلام:

«المدراشية بدأت خطابها بالترحيب السريع بوجودك باعتبارك فرصة لا تتكرر إلا نادرًا.. ثم شكرتني لكوني السبب الرئيسي في ذلك، والأسف على الظروف المفاجئة التي أوقفت البرنامج الذي من المفترض أنه أُعِدَّ لك.. واستطردت قائلة إن تاريخ هذه المدرسة، ودورها على مدار القرون كان فخرًا، وسندًا دائمًا للمملكة، وأنها لم تكن لتتخذ قرارًا مثل القرار التي ستتخذه الآن لولا الظروف الخارجة عن إرادتها، وحفاظًا على سلامة الطلاب أولًا وأخيرًا.. هذا وبأمر الملك «أسيسلام» ملك الجانلام وفي اجتماع المجلس الأعلى للمملكة، حيث وردت إلينا معلومات من مصادر موثوق فيها بقرب تعرض المملكة إلى هجوم من مملكة الجان الأسود، فقد تم اتخاذ الترتيبات اللازمة لحالة الطوارئ، ومنها إغلاق المدرسة الجنشورية حتى إعلان آخر».

***

بدت شونجلام ولأول مرة أراها من بداية تعاملي معها في حالة من الضجر والاكتئاب.. كانت جموع الطلاب وأعضاء هيئة التدريس والعاملون بالمدرسة الجنشورية قد قاربوا على الانصراف.. تقريبًا كنا نتحرك متجهين إلى البوابة الحديدية الخارجية للمدرسة عندما لمحت في أحد الجوانب مقعدًا خشبيًا عتيقًا يقع تحت أحد الأشجار الضخمة بينما كان ضوء القمر مُسلطًا عليه بشكل فريد، وكأنه أحد الأعمال الفنية.. دفعني هذا التكوين الجمالي لأن أجلس لأعيد التفكير في كثير من الأمور المتلاحقة التي تحدث.. كنت في عالم تتميز فيه كل دقيقة بالجديد المذهل، وقفت شونجلام أمامي تنظر إليّ نظرة تأمّلٍ تحمل الكثير من الود.. امتزج هذا المناخ الرومانسي برائحة عطرها المميز الذي يبدو أنه كان ينبعث تلقائيًا تبعًا للموقف.. أكملت شونجلام هذا الجو الأسطوري بإشارة دائرية من يدها اليسري لأفاجأ بمائدة مستديرة مضاءة بمجموعة من الشموع.. ثم تابعت باليد اليمني نفس الإشارة لتمتلئ المائدة بمختارات فاخرة من الطعام والشراب.. تابعت شونجلام قائله:

«آسفة، إن وقت تناولك الطعام قد مرّ بدون أن ندري نتيجةً للأحداث السابقة.. لقد درست بالطبع أن احتياجكم للطعام هو شيء

أساسي لاتزانكم الحيوي.. لذا اسمح لي أن أدعوك إلى العشاء وسأكون معك فيه كرفيقة روحية»..

وقفت شونجلام على يميني أثناء تذوّقي لتلك الوجبة الفاخرة.. لاحظت بطرف عيني أنها تنظر إليَّ تلك النظرات الثاقبة.. ورغم معرفتي بنتيجة ذلك فإنني لم أكن أستطيع أن أمنع آثار هذه الجرعة الفورية.. إحساس رومانسي مركز يملؤك، لايمكن وقتها أن تشك للحظة في كونه مصطنعًا، أو مرسلًا.

أمرٌ غريب لم أعشه من قبل.. أن تعيش إحساسًا، ومشاعر طبيعية تمامًا تتكوّن خارجك، ثم تنتقل إليك وأنت تعلم وترى ذلك ولا تستطيع حتى أن تتحكّم في شدته.. لقد كان أمرًا يصعب وصفه.. كانت مشاعر رومانسية تزداد بصورة مبهرة تعدت كل حدود عالمنا حتى أنني لم أجد فيما أعرفه من كلمات ما أستطيع أن أبادلها به ولو جزءًا ضئيلًا من هذا الإحساس.. كانت أقرب لحظات الرومانسية تأثيرًا لكل شعراء العالم، وياليتني كنت واحدًا منهم في هذا التوقيت.

بدون سابق إنذار وفي أعذب لحظات المشاعر، انتفضت شونجلام مرتفعة عن الأرض لمسافة أكثر من المعتاد.. كان تركيزها يتجه إلى قرص القمر الذي اكتسى جزء منه بالسواد «ماذا حدث؟»..

كانت إجابتها التي ردت بها واستمرت في ترديدها: «إنهم قادمون.. قادمون.. لكن قبل موعدهم»..

اكتمل الموقف رهبة في نقلة مفاجئة من اللحظات الرومانسية إلى العصبية.. بدأت شونجلام تفرز ذلك السائل الأخضر، ولكن هذه المرة بدا وكأنه يفور في درجة الغليان.. بدأت أسمع صيحات مزعجة متتالية تنبعث من السماء بعد أن غطّت البقعة السوداء كامل قرص القمر، وعمّ ظلام شبه دامس.. تبدّلت تلك الأصوات مع اقترابها إلى خفقات أجنحة ضخمة.. عندما اتضح المشهد، كانت أسراب كثيفة من طيور ضخمة سوداء اللون تأخذ شكل زواحف ما قبل الميلاد، بينما يبدو وجهها وأيديها بشكلٍ مقاربٍ للإنسان البدائي.. يبدو أن هذا هو الهجوم المتوقّع للجان الأسود على مملكة الجانلام كما أوردت المدراشية بخطابها.. لم يكن بذهني أي رد فعل يمكن أن أتخذه في مثل هذا الموقف الذي لم يكن ليخطر ببالي حتى وأنا في عالم الخيال.. وبينما جاء رد الفعل من شونجلام إلا أنه أيضًا لم يكن بالسرعة الكافية.

أمسكت شونجلام بيدي لننطلق بسرعة مرتفعين في اتجاه العربة التي أقلّتنا إلى هنا، والتي كانت تنتظر خارج أسوار المدرسة.. أكملت الكائنات التي تجرّ العربة الموقف بلمحة ذكاء لتتحرك في اتجاهنا.. كان

الموقف أشبه بمطاردة مثيرة.. فنحن ننطلق بسرعة في اتجاه العربة، مطاردين بالجان الأسود في شكل تلك الطيور القبيحة، وفي مواجهتنا تلك الكائنات التي تجر العربة تقترب.. كانت المفاجأة التي حدثت قد أضاعت الاتزان بين الطرفين ففي لحظة اقتراب تلك الطيور لدرجة التلامس أحسست بسياط ملتهبه تلامس ظهري.. أعقبها دوار غريب لم أعد أعي بعده شيئًا.

(٥)

المقابلة

يبدو أنني قد استغرقت في تلك الإغماءة لفترة طويلة.. فقد استيقظتُ لأجد الظلام قد بدأ يحل مرة أخرى.. كانت الكائنات التي تجرّ العربة تدفعني برأسها من الأرض لإفاقتي.. نظرت بجانبي وحولي لم أجد شونجلام، ولم يكن هناك أثر لأحد.. أحسست بألمٍ في رأسي.. انتفضت واقفًا.. كان الإحساس بعدم وجود شونجلام أقرب ما يكون للضياع.. كانت الطيور القبيحة، أو الجان الأسود قد اختفت.. تصورتُ أن شونجلام سوف تظهر بين لحظة وأخرى.. فأين يمكن أن تكون قد ذهبت؟.. مرّ الوقت بدون أن يحدث شيء، وبدون أن تظهر.. فأنا منتظر بجوار العربة، وتلك الكائنات التي تجرّ العربة تصدر صياحًا عاليًا بين الحين والآخر.. بدأ القلق يتسرّب إليَّ.. إن هناك مكروهًا ما قد حدث لها.. لكن كيف لي أن أعرف؟ ومع من سوف أتعامل؟ وأين سأذهب؟.. أحسست بفراغ غريب يملؤني إلا أن تلك الكائنات الذكية بدأت فجأة تصيح وتقترب مني لتدفعني لأركب العربة.. ففعلت.

انطلقت العربة بسرعة خارقة إلى وجهةٍ لم أتبيّنها، ورغم أنها كانت تتحرك في نفس الأماكن التي أعيش، وأتنقل فيها، إلا أنها بدت في هذا الوقت مختلفة تمامًا.. كما كنت أبدو تائهًا.. قطعت العربة مسافة أطول من التي قطعتها في رحلتها من المنزل إلى المدرسة الجنشورية.. كانت رائحة الهواء تشير بشكلٍ قاطعٍ إلى أننا في منطقة مزارع، أو حقول ما.. لم يكن تخميني خاطئًا.. توقفت العربة بشكل مفاجئ أمام مبنى لاستراحة كبيرة في منطقة زارعية تبدو أنها خارج حدود المدينة.. لم يكن لدي أدنى فكرة عن المكان الذي سأتجه إليه، وإن كنت قد بدأت أقتنع بمدى ذكاء تلك الكائنات القاطرة للعربة.

توجهت خارجًا من العربة.. كانت تلك الاستراحة هي المبنى الوحيد على مرمى البصر من جميع الاتجاهات.. كان تصوّري أنه يمثّل مقرًّا ما مشابهًا لمقر المدرسة الجنشورية.. لا لم تكن الاستراحة هي الهدف، فقد ظهر من جانبيها صفوف منتظمة من الأطياف تتحرك بشكل متناسق في إتجاهي.. كنت أقف لأراقب هذا الطابور الذي يشابه حرس الشرف العسكري بعالمنا.. كونت تلك الصفوف ممرًا محددًا لي بعد أن اصطفوا على الجانبين.

كنت مجبرًا أن أتحرك بهذا الممر الطيفي المحدد في طريق التف بجانب الاستراحة.. لأجد في الواجهة الجنهال الأكبر وكأنه كان في انتظاري في زيارة رسمية.. كان شكل هذا التجمع أقوى مما شاهدته في المدرسة الجنشورية.. كان يبدو أنه اجتماع رفيع المستوى.. كان المكان المحدد للاجتماع هو منطقة زراعية مفتوحة شاسعة المساحة، محددة بشكلٍ واضحٍ بأشجار الجازورين المرتفعة، لتبدو بشكل سياج طبيعي يحيط بتلك المساحة.

«لقد دعوتك لحضور هذا الاجتماع في هذه الظروف العصيبة التي تمرّ بها مملكتنا؛ لأن لك دورًا مهمًا ربما ساعدنا في استعادة شونجلام».. قالها بصوت خفيض وبتأثر بالغ..

كان وقع حديث الجنهال صادمًا بشكل واسع.. فلم أكن تحت أسوأ الاحتمالات أتصور أن تكون الأمور قد وصلت إلى الاختطاف.. ومن!!.. كيان لاتستطيع أن تقف أمامه إلا منبهرًا.. شونجلام!..

«ستحضر معنا اجتماع المجلس الأعلى للمملكة».. قالها الجنهال الأكبر بصوتٍ أقرب إلى الهمس.. ظهر الشكل العام ترتيبًا لانتظار شخصية بالغة الأهمية.. كانت المدراشية تقف بجوار الجنهال الأكبر

متجهّمة الوجه، ويبدو أنها كانت تحمِّل نفسها جزءًا من مسؤولية اختفاء شونجلام، واصطف بجانبها ثلاثة أطياف غالبًا هم بقية أعضاء المجلس الأعلى.. بدا الموقف في هذه اللحظة مؤثرًا لأبعد الحدود.. فمشاعر الانتهاء، والقلق لاختفاء شخص عزيز.

انتفض الجميع مع ظهور ضوء طيفي غريب جاء من الواجهة التي تحد تلك المنطقة المفتوحة.. كانت صفوف الأطياف على الجانبين وأعضاء المجلس الأعلى ينظرون بترقّبٍ لهذا الضوء الطيفي الذي بدأ يتسلل بين صفوف أشجار الجازورين لتزداد حدة الإضاءة بشكل مبهر، ويظهر من بين الأشجار ما يشبه الموكب الملكي.. لم أكن في احتياج لأن أسأل عن تلك الشخصية القادمة، فقد كان واضحًا بدون شك أنه ملك الجانلام.. الملك «أسيسلام».

بدأت الهمهمات والتنهّدات الخاصة بالترحيب تصدر بصورة متتالية بمجرد ظهور الموكب الملكي.. حتى أنها وصلت لحد الصراخ.. لم تكتفِ الأقدار بإضفاء مثل هذه الأجواء من الغموض فحسب، بل تعدت ذلك إلى تكرارٍ للمفاجآت المذهلة.. كنت أنتظر رؤية ملك الجانلام كما ارتسمت صورته في عقلي.. كهلًا وقورًا يتشح بلباس

الحكمة.. ظهر الموكب المكون من كائنات من نوع تلك التي تقطر العربات في صفّين متوازيين، بينهما صفان آخران من الأطياف الطائرة طويلة القامة، وفي الوسط مجموعة من الأطياف راكبي تلك الكائنات الغريبة، أو ربما مشابهة لها، ثم عربة ذهبية مملوءة بزخارف ورسومات مبهمة تجرها أربعة أزواج من الحجم الكبير لتلك الكائنات قاطرة العربات.

توقف الموكب الملكي أمامنا، وعلى بعد خطوات انتظارًا لنزول الملك «أسيسلام» ملك مملكة الجانلام.. تقدم الملك خارجًا ولكن ما هذا؟.. إنه طفلٌ لا يتعدى الثانية عشرة من العمر.. نعم طفل.. وليس قزمًا كما حاولت أن أغالط عينيَّ.. ربما ابنه قد سارع بالنزول قبله من العربة.. لكن لا، إنه هو ملك الجانلام.. كانت الهمهمات، والتنهّدات، والنظرات تؤكّد ذلك.. حتى جميع الحاضرين رؤوسهم في موقف يتّسم بالخشوع، والقدسية.. كان مرور الملك «أسيسلام» أمام المجلس الأعلى والذي كنت أرافقه- جزءًا من هذه المراسم.. وبينما كان قصر قامته كطفل قد يبدو مشكلة إلا أنه كان يتحرك كالمعتاد مرتفعًا عن الأرض وفي مستوى يفوق جميع الحاضرين.

وكان مروره -أيضًا- جزءًا من التقاليد المتبعة.. بينما توقف أمامي مباشرة لأدقق في وجهه بصورة واضحة.. ورغم كون ملامحه لاتختلف كثيرًا عن ملامح طفل إلا أن شعورًا طاغيًا بالرهبة انتابني فقط من مجرد نظرته لي.. رغم ما لمسته من حنكة وذكاء لمملكة اللام منذ قدومي، إلا أن اختيار طفلٍ ملكًا للمملكة شكّل بالنسبة لي لغزًا معقدًا، خاصة في غياب شونجلام، وعدم قدرتي على الاستفسار عن ذلك.

كان تفسيري لما دار باجتماع المجلس الأعلى نوعًا من الطلاسم يصعب فكّها قبل أن يتدخل الجنهال الأكبر ويقوم بنفس المهمة التي قامت بها ابنته سابقًا في تفسير محتوى الاجتماع الذي بدا ساخنًا، إلا أنه برز من خلاله عدة ملاحظات، منها أن المملكة يبدو أنها تتمتع بمستوى عالٍ جدًّا من الديموقراطية، وحرية التعبير في إبداء الرأي حتى في وجود الملك، كما أنه كان يبدو أن هناك شيئًا ما يتعلق بوجودي لديهم بالمملكة .

لم يكن من الصعب استنتاج ما سبق.. فرغم أن الحوار دار بنفس أسلوب توارد الأفكار الذي شاهدته مسبقًا بالمدرسة الجنشورية، إلا أنه كان غالبًا ماتتجه الأنظار لمن يقوم بنقل أفكاره مشابهًا للمتحدّث في

عالمنا، بينما يعقب ذلك التنهّدات، فتنتقل الأنظار لغيره ليقوم بالتالي بنقل ما لديه من أفكار.. الغريب أن كل ذلك كان يتم في تناسق، ونظام بديع، أو ربما وفرت لهم تلك الطريقة أداءً سهلًا.. بينما ظهر خلاله توجه الأنظار إليَّ بشكل متكرر.

جاءت توضيحات الجنهال الأكبر لي بعد انتهاء الاجتماع، وفي توقيت كان يشهد نوعًا من التواردات الجانبية بين أعضاء المجلس الأعلى، وأطياف أخرى كانت غالبًا مساعدين لهم.. جاء تفسير الجنهال بشكل نقاط محددة شملت خلاصة ما أود معرفته عن الاجتماع.. بدأ الجنهال حديثه معي وهو في حالة من التأثر الشديد قائلًا: «تعلم أننا تعرضنا لهجوم غادر من مملكة الجان الأسود.. عرفنا مؤخرًا أن هدفه هو اختطاف شونجلام.. ولماذا هي بالتحديد».. كررها الجنهال بنوع من الأسى الممتزج بمشاعر الأبوّة، ثم استطرد قائلًا:

«لقد كانت الوحيدة بالمملكة التي تملك معلومات دقيقة جدًا عن عالم الإنس، وهو ما كان مصدر اهتمامهم بدون شك.. ناقشنا كل هذا في اجتماعنا، واستمعنا لآراء تطالب بإرسال محاربين لمهاجمتهم، واستعادتها.. لكننا رأينا أن ذلك قد يؤثر على سلامتها.. أو كما اقترحت المدراشية إرسال مجموعة خفيّة لمحاولة نجدتها، إلا أننا أيضًا لم نستطع

معرفـة ردود الفعـل المتوقعـة مـن جـانبهم في حالـة اكتـشاف هـذه المجموعة.. إلا أن المجلس قد أقر الخطة الملكية التي رسمها وقررها الملك «أسيسلام»، والذي سوف تقابله الآن».

في تلك اللحظة تقدمت ثلاثة أطياف تجاهي بشكل مباشر، بينما نظر إليَّ الجنهال الأكبر قائلًا بلهجة شبه رسمية:

«تفضل للقاء الملك أسيسلام».. كانت لحظة التوتر التي أصابتني سببها مجرد التفكير في أنني على وشك مقابلة ملك الجان.. ورغم سابق رؤيته بوجهه الطفولي إلا أنني تذكرت ذلك الإحساس الخفي المملوء بالرهبة الذي أصابني عندما نظر في وجهي عند قدومه، وربما كان هذا الإحساس سببه الحضور الملكي الذي ينتاب كل الحاضرين بمواجهته.. تحركت تلك الأطياف وأنا بينهم لترسم لي مسارًا محددًا كان في نهايته الملك أسيسلام هائمًا.. مرتفعًا ومحاطًا بأطياف يبدو أنها الحرس الملكي.. توقفتُ عند توقف الأطياف المصاحبة لي في مواجهته تمامًا، ليأخذ دورةً حولي، ثم يتقدم لتلتقط كفيه الصغيرتين يديَّ، لتنتقل في لحظات معدودة تفاصيل الخطة التي أشار إليها الجنهال الأكبر بشكل مباشر إلى عقلي، وكأنني قد سبق أن سمعتها بل ودرستها مسبقًا.. لقد كانت قدرته في نقل مايريد إحدى الصفات الملكية.

(٦)

الخِطَّةُ الجُهنَّمِيَّة

كانت خطة جهنمية لاتصدر إلا من جان، رسمها بشكل شيطاني ورتبها ذلك الملك الطفل مجازًا.. فقد كان أسيسلام رغم مظهره الطفولي ملكًا بكل ما تعنيه الكلمة.. كان من الصعوبة إن لم يكن من الاستحالة وضع حد للصراع مع الجان الأسود، كما أن إرسال جواسيس لعالمهم لن يؤدي إلى النتائج المرجوة.. فكانت الخطة المحاطة بالخدعة، أو لنقل خدعة خالصة لها قشور الخطة، هي السبيل الوحيد لذلك.

كنت كما توقعت مُكلَّفًا بأداء دور محوري في غاية الحساسية لتلك الخطة، والتي كان هدفها الأساسي استرجاع شونجلام، وبث نوعٍ من الرهبة في مملكة الجان الأسود.. كانت الخطة تقتضي أن يتم إعادتي لعالم البشر باستخدام أحد تلك الممرات الجنشورية، ومن ثم القيام باستدعاء شونجلام من خلال إحدى طرق تحضير الجان، وبمساعدة أحد

المحترفين المحددين من خلالهم.. ورغم أنني لم أكن أؤمن بذلك حتى عهدٍ قريبٍ إلا أن تفاصيل ذلك كانت جاهزة لديهم لدرجة أنني لم أكن أدري أن هناك وسطاء من البشر يعملون بشكل وكلاء لهم إذا صح هذا التعبير.

كانت بقية الخطة تقتضي إعادة شونجلام مرة أخرى من عالم البشر إلى موطنها من خلال تلك الممرات الجنشورية.. لم يكن هناك أي شك أن الجزء من الخطة الذي سوف يتم تنفيذه في عالم البشر سيكون من خلالي، فأنا أقرب البشر إليهم الآن، كما أنه ليس هناك وقت ليضيع في محاولة اختيار غيري، علاوة على أن وضع شونجلام بالنسبة لي كان حافزًا للقيام بأي محاولة لإنقاذها.. وقد كانوا يعلمون ذلك.

في اجتماع مصغر ضمني مع الجنهال الأكبر، والمدراشية، ومعهم «كاظلام» وقد كانت أول مقابلة لي معه، وهو من الأطياف أعضاء المجلس الأعلى للمملكة، والمسؤول عن أمن مملكة الجانلام، وغالبًا ما انطبعت تلك المهمة عليه بحيث بدا بشكل غير ودود مقارنة بمعظم من قابلتهم.. كان «كاظلام» هو المعنيُّ بوضع التفاصيل الدقيقة لتنفيذ الخطة.. رتّب «كاظلام» أن يكون طريق عودتي من ممر جنشوري مخالفًا

للممر الذي أتيت منه، وذلك بهدف كسب الوقت تحسُّبًا لمقابلة أحد من الأصدقاء، أو المعارف قد يؤدي وجوده إلى إفساد الخطة، أو على الأقل تعطيلها.. عُقِد الاجتماع المصغّر في حجرة خشبية صغيرة تقع فوق الاستراحة المهجورة التي تم بجوارها اللقاء الملكي مع الملك أسيسلام، كانت كل تفاصيل الخطة تبدو جاهزة انتظارًا لموافقتي على تنفيذها، بينما أعطاني «كاظلام» مخطوطًا جلديًا يحتوي على خطوات، وشروط التنفيذ.

كانت أول مرة تقوم فيها المدراشية بالحوار البشري معي، ويبدو أنها فعلت ذلك نتيجة تأثر الجنهال الأكبر، وعدم قدرته على المتابعة.. قالت المدراشية إن الخطه راعت كما رسمها الملك أسيسلام أن يكون التحرك من أقرب مكان.. أي من هنا.. وقبل أن ترى المدراشية علامات التعجب على وجهي أكملت:

«إننا نقف هنا فوق أحد الممرات الجنشورية، وتحديدًا في هذه الاستراحة، وهذا سبب اختيار هذا المكان لعقد الاجتماع.. أما عن باقي التفاصيل فستجدها مدوّنة بلغتكم في ذلك المخطوط الذي أخذته من «كاظلام».. ولكن لاحظ أن تلك الكتابة لن تظهر لأحد غيرك أنت والوسيط.. أريد أيضًا أن أضيف أن هذا الممر الجنشوري لن يأخذك إلى

حيث كنت، بل إنه ينتهي في مكان آخر قد يساعد في تنفيذ الخطة المعدّة بدقة، كما أنه لن يكون كالممر السابق الذي جئت من خلاله، فالممرات الجنشورية غير متشابهة نهائيًا».

تمالك الجنهال الأكبر نفسه، وسأل سؤالًا يبدو أنه من الطقوس المعمول بها:

- «هل تقبل القيام بتلك المهمة لإنقاذ شونجلام طبقًا لما تم تحديده، وإقراره من الملك أسيسلام ملك مملكة الجانلام؟»..

- أجبت بلا تردد: «نعم أقبل»..

حنى الثلاثة رؤوسهم تجاهي كنوع من أنواع التحية والعرفان.. بينما انطلقت في نفس اللحظة الهمهمات، والتنهدات من الأطياف المتجمعة بجوار الاستراحة.

***

أمسك «كاظلام» بيدي، وانطلقنا مرتفعين عن الأرض يتبعنا المدراشية، والجنهال الأكبر إلى أسفل تلك الاستراحة حيث قبو غريب يشبه المخابئ المخصصة للحماية من مخاطر الحروب الغير تقليدية، أو كما تصوّرت ذلك.. لم يكن القبو هو بداية الممر الجنشوري، بل استمر

تحرَّكنا خلاله حتى انتهى ببوابة توقفوا أمامها ليعيدوا مرة أخرى حَنْيَ رؤوسهم.. عرفت أنني وصلت لبداية الممر، وأنني يجب أن أكمل بمفردي.. رددت التحية لهم بحني رأسي بنفس طريقتهم، ثم دفعت الباب الذي أصدر صريرًا مزعجًا، وخرجت رائحة تميز الأماكن المغلقة لفترات طويلة.

كنت في نوع مختلف من الإثارة، تميزت بالفضول العالي، كما كان الاتجاه من عالم الجان إلى عالم البشر يعطيني قدرًا كبيرًا من الطمأنينة والإقدام.. أُغلِق الباب تلقائيًّا بمجرد دخولي الحجرة.. كانت حجرة ضيّقة بأرضية تبدو طينية، تكتسي جدرانها بخيوط متشابكة من خيوط العنكبوت.. لكن لا منفذ إلا هذا الباب.. بدأت أشكّ أنني تعرّضت لخدعة ما، وأنه لم يكن عليَّ أن أوافق على ذلك، أو حتى بمثل هذه الشروط.. مع مرور الوقت ازداد هذا الإحساس لديَّ خاصة أن الباب لم يكن قابلًا للفتح.

بدأ المكان يأخذ شكل أحد أكثر الأماكن رعبًا منذ دخلت تلك المغامرة.. وأحسست أن ردود فعلي بدأت تأخذ الشكل الهيستيري.. حتى تذكّرت المخطوط الذي أعطاني إياه «كاظلام» وكان مازال في يدي

لكن كيف يمكن حتى أن أنظر إليها في هذا الظلام الحالك.. ظهر واضحًا أن الخطة لم تترك شيئًا للصدفة.. عند فتح المخطوط كانت المفاجأة أنه يشمل كتابات بلغتنا تبدو مرسومة.. ولكن الأعجب أنها كانت مضيئة بحيث يمكن قراءتها في جو أكثر إظلامًا من هذا.. كانت الكتابات بشكل نقاط الواحدة تلو الأخرى كان أولها بسيطًا للغاية:

* «كن هادئًا».. كان توجيهًا وإن بدا بسيطًا إلا أنه منحني الكثير من الراحة في هذا التوقيت.. فالتفاصيل كلها واضحة لهم.. بل أكثر من ذلك، إنهم يدركون ما ستكون عليه حالتي.

أخذت خطوات بسيطة في الغرفة لربما أستعيد بعض الهدوء، ولكني لم أكد أخطو خطوتين حتى انزلقت قدماي فيما يشبه الفجوة الأرضية، منزلقًا داخل ما يشبه أنبوبة تأخذ انحناءات مختلفة لمسافة لم أستطع أن أدرك طولها، وإن كنت أتصوّر أنها لم تكن تقل عن سبعة، أو ثمانية أمتار تقريبًا.. كانت الصدمة قويّة لكنها كانت في مياه بركة، أو بحيرة، أو ما يشبه ذلك، محاطة من كل جانب بأشجار كثيفة من أنواع غير مألوفة.. لم تكن هناك أية ظواهر تمكنني من معرفة هل مازلت في عالم الجان، أم أنني انتقلت لعالمنا.. ربما كان هذا الممر الجنشوري قصيرًا

كما أن المدراشية قد لفتت انتباهي إلى أنه لا توجد ممرات متشابهة.. أتقصد ذلك؟.. لا أدري.

كانت المشكلة التي فوجئت بها أنني فقدت أثناء انزلاقي بتلك الأنبوبة المخطوطَ الذي يحوي تفاصيل الخطة.. كنت على أطراف تلك البحيرة حينما وجدت ذلك المخطوط ملقى بجانب إحدى الصخور.. وبسرعة ومع سماع صوت زئيرٍ عالٍ جاء من وسط الأشجار المحيطة، فتحت المخطوط لأطَّلع على الخطوة القادمة.. كانت أيضًا جملة مختصرة:

«**الثمار الزرقاء هي دواء السنديل الناري**».. كانت أصوات الزئير تتعالى.. لم يعد لديَّ أي شك أنني مازلت بعالمهم، أو بمعنى أصح في الممر.. فلم تكن تلك الأصوات لتصدر من أي كائنات أرضية.. زاد على ذلك رائحة احتراق نباتات، أو فروع أشجار مع تصاعد أدخنة كثيفة.. قررت سريعًا أن أتبع ما قرأته بالخطة.. هناك ثمار زرقاء هي دواء لما يسمى السنديل الناري.. نظرت أبحث عن تلك الثمار التي ظهر أنها ثمار أرضية بحجم الليمون منتشرة بكثافة حول ضفاف البحيرة.. احتياطيًا، كان الهدف الحالي هو قطف أكبر كمية ممكنة من تلك الثمار الزرقاء.. كانت لتلك الثمار أفرع طويلة جعلت جمع كمية كبيرة بشكل

حزمة أمرًا سهلًا.. تحركت مسرعًا ممسكًا حزمة الثمار على ضفاف البحيرة في اتجاه معاكس لصدور الزئير، والأدخنة المتصاعدة.. لكن الفضول الإنساني جعلني أتوقّف لحظة لألقي نظرة عما سوف يظهر من خلف الأشجار.

لم يكن حيوانًا، أو طائرًا، بل نوعًا غريبًا من أنواع الزواحف المتحركة على مجموعة من الأرجل الشبيهة بأرجل الدواب.. لكن الغريب أنه كان يمتلك جسمًا شفافًا في بعض الأجزاء، يظهر من خلاله سوائل نارية تطفو بداخله.. كانت احتكاكات هذا السنديل الناري - والذي اتضح اسمه من خلال مخطوط الخطة- بالأشجار، والأفرع الموجودة يسبب انسلاخات بجسده تخرج -نتيجة لها- سوائل مشتعلة أشبه بالحمم البركانية.. كانت تلك التسلخات تزيد مع الحركة ليتبعها المزيد من الحمم، والنيران مع زيادة زئير هذا الكائن الغريب.. كانت حركته - رغم ما يبدو عليه من تألم- سريعة نتيجة عدد أرجله.. اقترب هذا السنديل بشكلٍ مخيفٍ مني، ولم أكن قد قررت بعد ما يمكن أن يكون تصرفي.. كان رد فعل تلقائيًا أن ألقي عليه الثمار التي قمت بتجميعها.. ولكن لم يكن لها أي تأثير حتي أصاب إحداها جزءًا من

الأجزاء المنسلخة بجسده.. وكأنه الدواء السحري، التأمت تلك التسلّخات أمام عيني بشكل لا يصدق، مع زئير مختلف للسنديل بدا كنوع من أنواع الراحة.

توقف كلٌ منا أمام الآخر.. السنديل يحتاج لهذا الدواء، وأنا أبحث عن وسيلة الوصول لعالمنا، واستكمال الخطة.. أطحت بأحد الثمار الأخرى على جزء آخر منسلخ من جسد السنديل، ولكن كهدف واضح نتيجة قربه منّي.. كانت هذه الثمرة هي سبب التواصل الذي حدث بيننا.. بدأ الهدوء يبدو عليه.. حتى نظراته إليَّ اكتست بنوعٍ من الشكر.. أمسكتُ باقي حزمة الثمار ووضعتها أمامه.. وكأنه لم يصدق حجم هذه الهدية الغالية، انتفض السنديل ليحطم تلك الثمار لتصبح سائلًا لزجًا أزرق اللون ليلقي بجسمه عليه متقلّبًا في جميع الاتجاهات.. عندما انتهى السنديل من ذلك، كان جسده قد عاد سليمًا تمامًا بدون أية تسلخات.

كان من الواضح أن الخدمة التي قدمتها للسنديل خدمة جليلة كان يأمل في تحقيقها منذ فترة.. بدت كل نظراته، وتعبيراته تجاهي مكسوة بالود.. عندما تركته، وبدأت التحرك أصدر زئيرًا عاليًا، وتقدم

تجاهي ليثني أرجله في دعوة واضحة لي للصعود إلى ظهره.. كان ظهر السنديل وكأنه مهيأ كوسيلة للركوب، فتلك الحراشيف الضخمة كانت على جانبي ظهره كأداة تمنع انزلاق الراكبين، ومثلها أصغر حجمًا كمقبض أثناء الاهتزاز.. مع مسحة من الخوف أصابتني انطلق السنديل مخترقًا الأشجار الكثيفة الموجودة على ضفاف البحيرة.. لم يكن لديّ أي توقّع على الوجهة المتجه لها.. لكنني في نفس الوقت كنت مقتنعًا تمامًا أن الخطة تسير كما تم تحديدها.. فكل ماتم تدوينه بالمخطط الذي تسلّمته من «كاظلام» تم تنفيذه بكامل حذافيره حتى الآن.. اختلطت أصوات حوافر السنديل أثناء سيره مع غليان الحمم النارية الموجودة داخل جسده لتكوّن مع الصدى الناتج من زئيره متتالية من الرعب.

***

لا أدري كم من الوقت مرّ وأنا أمتطي ظهر السنديل.. كانت الاهتزازات الناتجة عن الحركة تجلب النعاس، وقد زاد عليها كمّ الإرهاق الذي كنت أعاني منه.. لا أدري، ربما قد غفوت قليلًا لأستيقظ على توقُّفٍ مفاجئ للسنديل أمام أشجار عالية من الجازورين، وكأن السنديل قد توقف عند خط محدد رسم له لم يكن حتى ليتعدّاه

بسنتيمترات.. كان واضحًا أنها نهاية الرحلة عندما استقر السنديل أرضًا لأنزل من فوق ظهره.. بينما استدار فور نزولي بعد أن كرر نظرة الود لي عائدًا، وكأنه قد أكمل مهمته المحددة.. واختفى كما ظهر وسط الأحراش.

كانت المنطقة التي تركني فيها السنديل تتميز بأشجار عادية، وليست تلك الأنواع الغريبة التي صادفتها حول البحيرة.. كانت أشجارالجازورين تشكل حاجزًا ضخمًا أمامي.. قررت أن ألقي نظرة على المخطوط.. كانت الخطوة التالية المدونة به واضحة إلى حد ما:

«اعبر الحاجز الأخضر».. كان الحاجز الأخضر الوحيد الموجود هو تلك الأشجار المرتفعة المقابلة لي.. وبمنتهى السلاسة عبرت مجموعة الأشجار لأكتشف بعدها أنني في المنطقة الزراعية الواسعة التي تم فيها الاجتماع الملكي مع الملك أسيسلام، ويظهر جانبها مكتسيًا بضباب المزارع الصباحي.. تلك الاستراحة المهجورة.. هل يمكن أن أكون بعد كل ما مر مازلت بعالم الجان؟.. إنه نفس المكان.. أحسست أنني فقدت القدرة على تحديد المكان والزمان.. كنت أشعر بإحساس التائه في الفراغ.

أجمل الأصوات كانت السبب في عودتي مباشرة لحالتي الأصلية، ومنحي الطاقة المفقودة..صوت طائرة تمرّ.. لم أصدق إلا عندما شاهدتها على ارتفاع شاهق..نعم عدت.. ما أجمل العودة، خاصة إذا كنت في رحلة لعالم الجان.. أحسست برائحة الجو الريفي المميز.. أصوات طيور.. وأصوات بشرية تأتي من بعيد.. كانت المسافة التي سرت فيها وسط المزارع حتى قابلت طريقًا رئيسيًا من الأسفلت من أمتع ما يكون بعد ما رأيته من أهوال، وإن كنت مازلت أحمل بداخلي وعدًا بتنفيذ مهمة محددة.. كانت فرصة مناسبة تمامًا لإعادة التفكير فيما حدث وما سوف يحدث واتخاذ القرارت المناسبة تبعًا لذلك.. لكن في هذه اللحظة تذكرت شونجلام، ومدى عذوبة ورقّة حضورها، وبينما أنا الآن متواجدٌ في موطني الأصلي فهي على الجانب الآخر بعيدة تمامًا عن موطنها، وفي مكان محفوف بالمخاطر.. أحسست أنني أتحمّل جزءًا من مسئولية اختفائها.. وكيف لا وقد كنا معًا في اللحظات السابقة لاختطافها.. دفعني هذا التفكير لمزيد من الإصرار على استكمال تنفيذ الخطة.

كنت أقف على حافة الطريق الأسفلتي حين قررت أن ألقي نظرة سريعة على المخطوط.. كان التوجيه القادم مباشرًا ومحددًا:

«الوقت زادٌ للمحبين.. الدكتور/ رشيد الأخشيدي، ١٢ شارع كنيسة العذراء - الظاهر». . استرجعت فورًا أسلوب أطياف مملكة الجانلام في التعامل وتحديد الأمور بشكل مباشر، وعليه فإن تفسير هذا التوجيه يعني أن الوقت ليس في مصلحة شونجلام، كما أن الشخصية المحددة بالتوجيه بالتأكيد لديها الكثير، أو بمعنى آخر هي جزء مشارك بالخطة.. كنت قد رتبت أن أعود للمنزل لفترة راحة، ثم أستكمل بعدها تنفيذ المطلوب، إلا أن التوجيه السابق قد لفت نظري أن التأخير قد يجلب المزيد من المصاعب تجاه شونجلام.. وهو ما لم أحبذه نهائيًا.

بعد فترة من الانتظار مرت سيارة ريفية لنقل الركاب ذات كابينة خلفية بمقاعد خشبية مواجهة لبعضها.. توقفت العربة بعد إشارة مني لأركب بأحد تلك المقاعد الخشبية بالكابينة الخلفية.. لم أكن أعرف موقعي بالتحديد لكني طلبت أن أنزل في آخر الرحلة لربما تعرفت على الطريق خلال ذلك.. سلكت السيارة ببطء الطريق الأسفلتي، لتنحرف بعد فترة لتخرج إلى طريق الأسكندرية القاهرة الزراعي.. نعم مؤكَّد،

تنفست الصعداء، فالأمور تسير تمامًا طبقًا لما تم تحديده.. أسندت رأسي على النافذة المطلّة على السائق لأنعم بقليل من الراحة.

يبدو أنني غفوت في النوم، وكان استيقاظي على صوت (تبَّاع) السائق يخبرني بأننا في آخر الرحلة.. كانت سعادتي بالغة، فقد كان موقف السيارة بميدان رمسيس في وسط القاهرة.. كنت في اشتياق لرؤية هذا الزحام، والتكدس من البشر، والذي طالما افتقدته في الفترة السابقة.. وبشكلٍ مباشرٍ استقللتُ سيارة (تاكسي) من هناك حتى عنوان الدكتور رشيد بمنطقة الظاهر، وهي مسافة قريبة نوعًا ما.

كان العنوان واضحًا تمامًا بدون أي لبس.. توقف (التاكسي) في أحد شوارع منطقة الظاهر القديمة أمام منزل أثري لا يقلّ عمره عن ثمانين عامًا، أو أكثر، مكونًا من ثلاثة طوابق.. لم يكن هناك أي إشارة لأية شقة يقطنها الدكتور رشيد، فقررت أن أبدأ بأول شقق المنزل.. لم أجد أية استجابة، وبدا أن الشقة خالية، بينما فتحت الشقة المقابلة فتاة صغيرة أخبرتني أن شقة الدكتور رشيد بالدور الثالث في نفس الجانب الموجود به شقّتهم.. شكرتها، وانطلقت صاعدًا السلم وإن كانت نظراتها لي حملت نوعًا من الارتياب.

مرّت برهة قبل أن يُفتح باب شقة الدكتور رشيد ليُطلّ منه شخص نحيف، في أواخر العقد الخامس من العمر، يرتدي عباءة سوداء، ويبدو على وجهه وكأنه لم يذق طعم النوم منذ فترة.. يبدو أن الدكتور رشيد كان يتمتّع بقدرٍ كبيرٍ من الشك ظهر جليًّا بحواره معي:

- نعم!

- الدكتور رشيد؟

- نعم أنا!

- هل تسمح لي بخمس دقائق من وقتك؟

- بخصوص ماذا؟

- لقد جئت من أجل الخطة التي أعطاها لي «كاظلام»..

- من؟.. كاظ من؟.. وأي خطة؟.. يبدو أنك أخطأت العنوان، أو أنك تبحث عن شخصٍ غيري.

وأغلق الباب!

أحسست لأول مرة بوجود مشكلة ما بالخطة.. ولكن كيف؟ وقد تغلبوا على مواقف أكثر تعقيدًا من هذا الموقف.. قررت أن أسترجع بعض التوجيهات من المخطوط لربما كان هناك ما لم يقع نظري عليه قد

ينجدني في هذا الموقف.. هل يمكن أن يكون هناك نوع من الكلمات السرية؟.. لم تكن هناك إلا كلمة واحدة قررت أن أجرّبها.. ضغطت الجرس مرة أخرى.. كان واضحًا أن الدكتور رشيد لم يبتعد كثيرًا عن الباب.. أجاب فورًا:

- نعم!

ردت بصوت عالٍ وواضح:

-«الوقت زاد للمحبين»

فتح الدكتور رشيد الباب فورًا قائلًا:

-«تفضل»

كانت شقة الدكتور رشيد صغيرة، ومتواضعة إلى حدٍ ما.. كان الأثاث قديمًا، وإن ظهر فيها شغفه العالي بالقراءة.. تقدّم الدكتور رشيد أمامي إلى حجرة مغلقة كانت حجرة المكتب الخاصة به.. كانت الحجرة تشمل مكتبة مكدسة بالكتب، والمراجع المختلفة، ومكتب خشبي ضخم، ومائدة مربّعة بالوسط حولها أربعة كراسي.. جلس الدكتور رشيد على أحدها ليخلع نظارته وينظر إليّ قائلًا:

- اعذرني، قلة النوم جعلتني متوترًا قليلًا.. احكِ لي ما الذي يربطك بعالم تحضير الجان؟

- أرجو أن تجيب أنت أولًا على سؤال يحيرني

- تفضل

- ماذا تعني لديك كلمة: «الوقت زاد للمحبين؟»

- بصراحة تكررت هذه الجملة معي خلال ثلاث جلسات لتحضير الجان بشكل غريب، والأعجب أن الجلسات الثلاث تمت في الثلاث ليالي السابقة، ولا يربطها ببعضها أي رابط، أعتقد الآن أنك تحمل بخصوصها تفسيرات أكثر، أرجو ألّا تبخل عليَّ بها، وأنا من جهتي مستعد لأية مساعدة ممكنة.

قاربت جملة الدكتور رشيد الأخيرة المسافات، واختصرت الكثير من المقدمات، والتمهيدات.. كان عليَّ أن أختصر الأحداث السابقة كلها لأقصّها على الدكتور رشيد، وفي نفس الوقت دون إغفال لأي جزء من التفاصيل الأساسية.

***

ساعدني تخصص واهتمامات الدكتور رشيد بعلوم ما وراء الطبيعة، وتعامله بشكل عملي في جلسات تحضير الجان على الإصغاء الجيّد للأحداث السابقة، علاوة على درايتة لكثير من التفاصيل الدقيقة بعالم الجان.. لكن رغم ذلك كانت التجربة التي عشتها بمملكة الجانلام مذهلة بالنسبة له.. كانت تعبيرات، وملامح وجهه تتأثر بشدة تبعًا للمواقف والأحداث التي أقصها عليه.. كانت استفسارات الدكتور رشيد محددة، ولا تخرج إلا من شخصٍ متخصص في المجال.. عندما انتهيت من سرد تفاصيل الأحداث، أزاح الدكتور رشيد النظّارة عن وجهه ليسرح قليلًا، ثم تابع قائلًا:

- إن تلك الجملة التي تكررت خلال الجلسات الثلاث السابقة هي رمز لطلب اشتراكي في هذه الخطة، كما كانت أيضًا كلمة سر لتعارفنا..

كانت تحليلات الدكتور رشيد محترفة، وفي محلها تمامًا:

- «أيمكن أن أطَّلع على الخطة؟»..

فتحت المخطوط ليلقي عليه نظرة.. وضع الدكتور رشيد نظارته مرة أخرى، وأمسك المخطوط ليستغرق لفترة بين التأمل والتدقيق.. ثم تابع قائلًا بدون أن ينظر إليَّ:

- «إن الموضوع ليس بسيطًا كما تتصوّر، ولم أقم به من قبل.. إنه تحضير مركّب من عالم الجان الأسود.. لكن يبدو أن أصدقاءنا في مملكة الجانلام مستعدون معنا بنفس التوقيت، وهو ما قد يسهل الأمور لنا إلى حدٍ ما».

لم أكن من قبل قد ألقيت نظرة مفصّلة على المخطوط الذي سلّمه لي «كاظلام»، وغالبًا ما كنت آخذ نظرة سريعة خلال مواقف حرجة للغاية، لكن الدكتور رشيد كانت له رؤية مختلفة فيه.. فما كان يحتويه من رموز ورسومات لم تعنِ بالنسبة لي شيئًا، كانت الأساس في مهمته لجلسة تحضير الجان..

- «على أية حال لكي نبدأ يجب أن نتمتع بالصفاء الذهني، لذا أرجو أن تعتبر نفسك ببيتك».. قالها الدكتور رشيد بلهجة ترحيب.. «سأخرج لإعداد بعض الطلبات، وأرجو أن تأخذ قسطًا من الراحة حتى عودتي».

(٧)

الجلسة

استلقيت على مقعد وثير في أحد أركان حجرة المكتب، وذهبت في نوم عميق.. عندما استيقظت كان الدكتور رشيد جالسًا على مكتبه، وأمامه العشرات من الكتب، والمراجع، وقصاصات الأوراق.. كان واضحًا أن هناك جزءًا بالخطة يحتاج إلى مزيدٍ من البحث والدراسة.. حاولت أن أشاركه في إبداء الرأي فيما يبحث عنه، لكنه لم يلتفت إليَّ، وربما حتى لم يسمعني أتحدث معه.

ألقى الدكتور رشيد بنظّارته على المكتب، وتابع قائلًا:

- بناء على تفاصيل الخطة المفسرة بالمخطوط فإن شونجلام مقيدة تحت حراسة اثنين من الجان الأسود، وبينما تستطيع شونجلام بقدراتها، وقدرات التوارد، والاتصال مع عشيرتها من مملكة الجانلام أن تفك أسرها في حالة عدم وجود الحارسَيْن، إلا أن المشكلة تكمن في عدم معرفتها بطريق العودة بين مملكة الجان الأسود، ومملكة الجانلام، وهو

مايستدعي محاولة استحضارها لعالم البشر، ثم العودة مرة أخرى لمملكتها من خلال أي ممر جنشوري..

كان واضحًا استيعاب الدكتور رشيد للخطة بكامل تفاصيلها، ولكنه لفت نظري إلى أنها مقيدة تحت حراسة اثنين من حراس الجان الأسود.. ومع إحساسي بالتأثّر لما كانت عليه شونجلام إلا أن مشكلة التخلص من الحارسين كانت هي «مربط الفرس».

أخبرني الدكتور رشيد أنه سوف يقوم بتنفيذ هذا الجزء من الخطة بطريقته الخاصة، ورغم أنه صارحني أن ما سيقوم به لم يتم تجربته عمليًا من قبل، إلا أنه طبقًا لدراسته نظريًا فهو واثق تمامًا من نجاحه.. كانت تلك المعلومات تبدو واضحة شكلًا، بينما مازلت لا أستطيع أن أستنتج ما سوف يقوم به.. ترددتُ قليلًا قبل سؤاله بشكلٍ مباشر.

- أرجو أن تعطيني تفاصيل أكثر..

تنهّد الدكتور رشيد، ونظر إليَّ قائلًا:

- تعلم أن الفروق بين تلك العوالم تعتمد على الوسائط المحيطة، ونظريًا الجان الأسود له وسيط ناري، وعلى الوجه الآخر فإن الوسيط المائي، أو الترابي قد يقضي عليه فورًا.

أكمل دكتور رشيد تفسيره قائلًا:

- ما سوف أفعله هو مشابه للكمين، فمع استدراج الحارسين إلى هنا سنحيطهم بتلك الوسائط التي لايمكنهم التعامل معها.

أجبت قائلًا:

- لكن هناك سؤال اعتراضي..

- تفضل..

- كيف لنا أن نصل للحارسين بالتحديد؟

- يبدو أنك لم تدرك قيمة المخطوط الذي كنت تحمله. فقد شمل - إضافة للتوجيهات- الرموز الخاصة باستدعاء هذين الحارسين، وهو ما سنقوم نحن به كجزء من عملنا.

- نحن.. تقصد؟..

- نعم ستشاركنا أنا والوسيطة الروحية السيدة أشجان..

كان جرس الباب هو ما قطع حوارنا.. كانت القادمة هي السيدة أشجان.. سيدة قصيرة ممتلئة القوام، ذات شعر قصير، ونظرات شاردة.. كانت هيأتها مناسبة تمامًا لأداء أدوار الوسطاء.

كان الموعد المحدد لبداية الجلسة هو الثانية عشرة مساءً.. استغرقنا حوالي ساعتين تقريبًا للتجهيز، فلم أكن أدري كم التفاصيل التي يجب أن تتواجد لنجاح تلك المهمة.. أوراق بيضاء بمقاسات محددة، أقلام رصاص، حتى مفرش المائدة يجب أن يكون له شكل، ولون محدد.. بجوارالمكتب كانت هناك مجموعة من زجاجات المياه جهزها الدكتور رشيد، وخلطها بماء الورد، وبعض السوائل العطرية، كما تم تجهيز ثلاث أجولة صغيرة من تربة طينية.. كانت مهمتي تنحصر في إغراق الحجرة بالمياه، والتربة الطينية عند توقيت يحدده الدكتور رشيد خلال الجلسة.

لم يُرِد الدكتور رشيد أن يضيع تلك الجلسة الغير مسبوقة له بدون أن يقوم بتوثيق تفاصيلها كمرجع دراسي في علوم ما وراء الطبيعة.. تم توزيع عدد من (الميكروفونات) الحسّاسة في أطراف الحجرة مرتبطة بآلاتَيْ تصوير لـ(الفيديو) ذواتي حساسية عالية للتصوير الليلي.. لم يكتفِ الدكتور رشيد بذلك، بل إنه كان قد سجل مجموعة الأوامر الخاصه بتحضير الجان، ورموز الوصول لحراس شونجلام من الجان الأسود ليتم إذاعتها في التوقيتات المناسبة، وبتحكم في حدة، ودرجة

الصوت المطلوبة.. كانت أعمال التجهيز تتم بمهارة وسرعة ما بين الدكتور رشيد، والسيدة أشجان كما كانت حرفية الأداء تظهر اعتيادهما على القيام بتلك الأعمال.

بدت الحجرة قبل ساعة من موعد البدء أشبه بمعمل مجهز للقيام بتجربة ذات نوع خاص جدًّا.. ألقى الدكتور رشيد نظرة عامة على الحجرة، وارتسمت على وجهه علامات الفخر والرضا.. كانت التعليمات الأخيرة قبل البدء غاية في الأهمية، ورغم أنني عشت أحداثًا واقعية تتعدى ذلك مع الجان وفي مملكته، إلا أن الموقف تميز بالإثارة العالية.

جاءت تعليمات الدكتور رشيد في شكل ممنوعات يحظر أداؤها، أو نطقها، أو النظر إليها.. ممنوع النطق نهائيًا بأي كلمة، أو حرف خلال الجلسة، كما يندرج تحت ذلك تعبيرات، وألفاظ الخوف، أو الإطراء، أو التعجب.. ممنوع مغادرة الجلسة قبل انتهائها.. ممنوع توجيه أي حوار، أو أسئلة، أو استفسارات لأي أطياف ظاهرة.. وفي النهاية على كل الحاضرين تنفيذ فقط المهام المطلوبة منهم، وفي وقتها ليس إلا.

خمس دقائق قبل البدء.. الدكتور رشيد جالس على مكتبه يراجع شاشتين لبث الفيديو، ويختبر درجات الصوت في السماعات من خلال أجهزة التحكم الموجودة أمامه.. السيدة أشجان جالسة أمام المائدة مغمضة العينين، وفي حالة تركيز تام.. أما أنا فقد كنت أجلس على مقعد بطرف الغرفة.. جهزت أمامي زجاجات المياه، وأجولة التربة الطينية.. تمامًا كما رتبنا الدكتور رشيد، كلٌّ في موقعه، وفي انتظار أداء مهمته.

***

الثانية عشرة مساءً تمامًا.. موعد بدء الجلسة.. أشارت السيدة أشجان إلى الدكتور رشيد بإيماءة من رأسها، وأشعلت أمامها خليطًا كثيفًا من البخور في مبخرة فخارية بمنتصف المائدة.. لم يمر أكثر من دقيقتين حتى غطى البخور الكثيف الحجرة، وحجبت الرؤية بشكل تام، فلم نعد ثلاثتنا نرى بعضنا البعض.. بدأ الدكتور رشيد في تلك اللحظة في بث الأوامر الصوتية الخاصة بربط، واستدعاء الجان الأسود، كما أوضح لي سابقًا.. كانت الأوامر تصدر من خلال الميكروفونات الموزّعة بالحجرة ممتزجة بنوعٍ من الصدى، ويرفع من حدتها على فترات

الدكتور رشيد.. وصلت الحجرة إلى درجة من الغموض تعادل الكثير من الأماكن التي عايشتها خلال وجودي بمملكة الجانلام.

كنت في حالة من الترقُّب الشديد انتظارًا لِما سوف يحدث.. مرّت أكثر من خمس دقائق بدون تغيير.. كانت أول ملاحظة لي هي ارتفاع مفاجئ غير طبيعي في درجة حرارة الغرفة، ورغم أنني أرجعت ذلك إلى الأبخرة المحتجزة في مكان مغلق، إلا أن درجة الحرارة أخذت ترتفع لتبدو كحرارة ناتجة عن نيران مشتعلة.. كانت هناك فترات توقف في تلك الأوامر الصوتية التي تلقى بكلمات غير مفهومة.. ثم كان هذا الصوت الحاد في أحد هذه التوقفات، وكأنه مزلاجًا ضخمًا يفتح عن بوابة حديدية عملاقة، تلاه صرير حاد لفتح تلك البوابة.. بعد ثوانٍ قليلة من الصمت بدأت تظهر عن بُعدٍ أصواتٌ كنت واثقٌ تمامًا أنه قد سبق وسمعتها.. صيحات مقترنة بخفقات أجنحة ضخمة.. كنت قادرًا في تلك المرة على تمييزها بشكل صحيح.. نعم، يبدو أنهم قادمون.. تذكرت بأسى في تلك اللحظة شونجلام عند ترديدها نفس الكلمة «إنهم قادمون.. قادمون»... منحتني تلك اللحظة رغبةً طاغيةً في الانتقام.

أصابت السيدة أشجان في هذه اللحظة حالةٌ شبه هيستيرية.. أمسكت القلم لتكتب رموزًا، ودوائر متتالية على الأوراق الموجودة أمامها مع صراخٍ حاد.. أخذ الدكتور رشيد يرفع من درجة الصوت تزامنًا مع اقتراب خفقات الأجنحة.. بدأت أصوات الأجنحة تظهر وكأنها قادمة من أحد جدران الغرفة.. في تلك اللحظة جاءت الإشارة بتنفيذ مهمتي.. الدكتور رشيد يصيح بصوتٍ عالٍ:

- «الآن! الماء على الحائط».. لم أنتظر أن يكمل باقي جملته إلا وكان الجانب الذي بدت الأصوات تقترب منه مشبعًا بالمياه..

أكمل الدكتور رشيد:

- «التراب الطيني» وكالمجنون اندفعت لألقي بأجولة التراب على الحائط، وكأنني أثأر من مغتصب.. وكأننا ألقينا شحنة ناسفة، صوتٌ يشبه انفجارًا مكتومًا خرج من تحت المياه، أعقبه سكونٌ تام.. هكذا بمنتهى البساطة نجح تصوّر الدكتور رشيد بصورة فاقت حتى ما كان هو يتوقعه.

كنت في سعادة غامرة من النجاح الباهر الذي تم، خاصة مع إحساسي بالمشاركة بجزءٍ مهم في التخلص من حراس شونجلام من

الجـان الأسـود.. لكـن أيـن شـونجلام؟ أيمكـن أن تكـون قـد ذهبـت لمملكتها بعد التخلص من حراسها؟... لكن الخطة كانت واضحة أننا سوف ندفعها لعالمنا، ثم تعود من خلال أحد الممرات الجنشورية.. لم يكن الوقت يسمح لسؤال الدكتور رشيد، فهو مازال لم يعطِ بعد إشارة انتهاء الجلسة، وهذا يعني أن هناك المزيد من الأحداث.

كانـت السـيدة أشـجان قـد عـادت لحالتهـا الطبيعيـة، وإن كانـت لاتزال مغمضة العينين، وفجأه أمسكت بـالقلم لتطـرق بـه عـلى المائدة ثـلاث طرقـات، لتبـدأ بتـدوين شيء مـا.. انتهـت السـيدة أشـجان مـن الكتابة، ثم أمسكت الورقه، وتركتها وكأن تيار هـواء قـد حملهـا ليسبح بها.. لقد اندفعت تلك الورقة طائرةً بالغرفة لتهبط أمامي.. نعـم أمـامي أنا بالتحديد.. أمسكت الورقة بشغفٍ شديد.. كان ما كتب بها هو أجمل مـا وقعـت عليـه عينـي طـوال حيـاتي.. «أشـكرك.. أنـت منقـذي.. شـونجلام».. نعـم الآن أشـم رائحـة عطرهـا الـذي غمـر المكـان.. هـي موجودة.. هي معنا.. لقد عادت.

***

ظهرت شونجلام في ركن الغرفة المقابل لي بشكلٍ تجلّى متدرجًا، ومشابه لظهورها عندما قابلتها بالممر الجنشوري.. بدت شونجلام مشرقة الوجه، وارتسمت على وجهها ابتسامة ساحرة تحمل الكثير من المعاني.. كان تجسّدها طبيعيًا لدرجة أنه لا يمكنك أن تشكّ للحظة أنها من عالم الجان.. سيدة أنيقة متفرّدة في الجمال والرِّقة، تقف بشكل هادئ، تنتقل نظراتها بشكلٍ ناعم بيننا.. كان الدكتور رشيد أكثرنا إثارة، وتأثّرًا بهذا الموقف، حتى أنه كان يمكن أن نستمع لخفقات قلبه.

- «معاليكي، لقد تشرفنا».. قالها الدكتور رشيد بصوتٍ خافتٍ موجّهًا نظره إلى شونجلام.. أجابت شونجلام بنعومة بالغة:

- «دكتور رشيد، لقد كنتَ عند حسن ظننا.. نحن نتابع مجهوداتك ودراستك المتميزة.. أرجو أن تقبل خالص شكري وتقديري»..

اختارت السيدة أشجان أن تلقي تحية قصيرة بلهجة متقطّعة:

- «تحياتي ياسيدتي»..

- «التحية والشكر لكي».. أجابت شونجلام.

- «اسمحوا لي أن أنصرف».. قالتها السيدة أشجان، وهي تحاول أن تتمالك نفسها لتقف، ويبدو أنها لم تتحمل تصوّر وجودها في حضرة

جـان بـشكل آدمـي.. لم تنتظـر أشـجان حتـى تـسمع ردنـا، وانـصرفت مسرعة لتفتح باب الشقة، وتنصرف بدون إغلاقـه.. كانـت الـساعة قـد قاربت من الرابعة صباحًا حين أعلنت شونجلام بلهجة حاسمة:

- «أمامي أقل من أربع وعشرين ساعة حتى موعد انصرافي.. أرجـو أن تمنحوني الفرصة للتعرف أكثر على عالمكم»..

ابتسم الدكتور رشيد، فقد جاءته الفرصة المثاليـة للتعـرف بـشكل مباشر على الجان.. أما أنا فقد كان هذا هو منتهى ما أتمنّاه.

كانت نصيحة شونجلام لنا بأخذ قسطٍ من الراحة في محلّها تمامًا، وإن كان الدكتور رشيد مترددًا خشية أن يفقد تلك الحقيقة التي يعيـشها فأخذ في المماطلة، وإن كان قد اقتنع في النهاية بأننا جميعًا في واقعٍ مـستمر حتى الصباح.. كان استيقاظنا في الصباح يحمل ماجعل الـدكتور رشـيد يصاب بالذهول، بينما كان الأمر بالنسبة لي طبيعيًا جـدًا.. مائـدة الطعـام الفـاخرة المعتـادة تـم تجهيزهـا بـأفخر أنـواع المـأكولات، والمـشروبات.. كانـت المرة الأولى التـي تـشاركنا شـونجلام في الجلـوس.. لم يبـدُ الأمـر غريبًا بالنسبة لها.. كانت تتصرّف تصرفات البشر بشكل واقعي.. حتـى

الحديث الذي دار بيننا على مائدة الإفطار، لم يكن لأكثر المحنكين بأمور الجان، والخوارق أن يشك للحظة أنه يدور مع أحد أفراد الجان.

***

لم يكن تخطيطي لترتيب رحلة سياحية ليوم واحد في محله، فرغبة شونجلام في التعرف على عالمنا كانت محددة.. فهي تعيش مجازًا في نفس الأماكن بينما كان مقصدها هو التعامل بشكل مباشر، وعن قرب مع الإنسان.. كان من الصعب -إن لم يكن من الاستحالة- ترتيب برنامج للتعامل مع البشر كما تصورت شونجلام.. فمثل هذا التعامل يأتي تلقائيًا تبعًا للظروف والأحداث.. وعليه فقد قررت أن أترك أحداث اليوم تدفعنا كما تأتي للتعامل المباشر بينها وبين البشر.

(٨)

أحداث ساخنة

لم ننتظر كثيرًا لتأتي الأحداث الساخنة بل الملتهبة والتي لم نكن حتى لنستطيع أن نرتب مثلها بشكلٍ تمثيلي.. بدا صباحًا مبهجًا عندما غادر ثلاثتنا -أنا، والدكتور رشيد، وشونجلام- مدخل العمارة التي يقطن بها الدكتور رشيد إلى حيث تقف سيارته.. كانت شونجلام تسبقنا بخطوات في حالة انبهار شبه تام من كمّ المارة السائرين بجوارها من جميع الاتجاهات.. كنت أشعر أنها تريد أن توقفهم لتطرح عليهم عشرات الأسئلة.. كانت هيئة شونجلام، وطريقة سيرها، والملابس ذات الذوق الرفيع التي ترتديها توحي بأنها إحدى الأميرات.. كانت تجبر معظم السائرين على النظر إليها بنظرات الإعجاب والهيبة.. كان احترامنا لحالة شونجلام برغبتها في دراسة عالم الإنس هو ما جعلنا نتأخّر بضع خطوات خلفها.. كانت تبدو كشخص مندمج في دراسة ما، ما بين مشاهدة المارة، والنظر إلى المباني، أو الالتفات إلى أي صياح، علاوة على أصوات، وأشكال المركبات بكل أنواعها.

في ثوانٍ معدودة وبدون أي مقدمات، وبينما تقف شونجلام على حافة تقاطع أحد الشوارع، كان صوت درّاجة بخارية قد تعالى بشكلٍ مفاجئ، أعقبه اقترابها من شونجلام.. وفي لحظةٍ انقضّ الراكب الخلفي ليسحب سلسلة ذهبية كانت معلقه برقبة شونجلام.. كان الموقف سريعًا لدرجةٍ أصابتنا بشللٍ وقتي في التفكير قطعهُ صياحُ بعض النساء، والمارة في محاولة يائسة لإمساك الدراجة البخارية التي اختفت في ثوانٍ كما ظهرت.

لم تهتزّ شونجلام نهائيًا، وكأن الأمر لا يعنيها، وكأن السلسلة لا تخصها، أو أنها سُرقت من أحد غيرها.. كان موقفًا غريبًا لفت حتى أنظار المارة بعد تجمعهم حولها.. لكن بين جملة التعليقات كان التعليق الذي اقتنع به معظمهم أنها مذهولة من الموقف.. «أحضروا لها كوبًا من الماء».. سريعًا ظهر عامل بأحد المقاهي القريبة يحمل كوبًا من الماء ليقدمه لها.. كان تدخلي هنا سريعًا جدًا فشونجلام لا تأكل، ولا تشرب.. ولم يكن هناك داعٍ للتعرّض لموقف محرج يحتاج لعشرات التفسيرات أمام المارة.. أمسكت كوب الماء أمامها بسرعة، ثم أعدته فورًا لعامل القهوة صائحًا:

- «يبدو أنها تعاني من صدمة عصبية.. سننقلها لأقرب مستشفى»..

لم يكن بالطبع ما قلته صحيحًا، إنما كان الوسيلة الوحيدة للخروج من هذا المأزق الذي تتابع بصياح أحد الحاضرين «أنا معكم شاهد، لنذهب بعد المستشفى إلى الشرطة».

استمرت شونجلام خلال تلك الحوارات في مهمتها لمراقبة تصرُّفات الموجودين بتركيزٍ شديد، مما ساعدنا بإيحائهم أنها تعاني فعلًا من صدمة، في الوقت الذي كان الدكتور رشيد قد ذهب، وأحضر سيارته إلى مكان تجمعنا.. أمسكتُ بيد شونجلام، ودفعتها للركوب سريعًا في المقعد الخلفي بينما ركبت أنا بجوار الدكتور رشيد لننطلق سريعًا مبتعدين عن العديد من الموجودين الراغبين في صحبتنا.. إما شهامةً، أو إعجابًا بشونجلام.

كان الحوار الذي تم في السيارة هو دراسة يحرّكها الفضول بين طرفين.. شونجلام فعلًا لديها الكثير من التساؤلات حول هذا الموقف الذي حدث، ونحن من جهتنا نستعجب من رد فعلها الهادئ، ونترقّب لمعرفة ما يدور في ذهنها.. بدأت شونجلام قائلة:

- «من الذي أخذ مني قلادتي الذهبية؟.. ولماذا لم يطلبها؟.. ومتى سيعيدها؟».. كانت ثلاثة أسئلة من نوعية السهل الممتنع.. لكن يبدو

أن الدكتور رشيد كان يهوي الإجابة على مثل هذه النوعية من الأسئلة، خاصة إذا كان السؤال موجَّهًا من جانٍ محل دراسته:

- «أود أن ألفت نظرك سيدتي أن البشر يعيشون أخيارًا، وأشرارًا معًا، بمعنى أنه لا يوجد فاصل بينهم كما يوجد بعالمكم.. الجان الخيِّر يعيش منفصلًا عن الجان الشرير، أو الأسود، وهذا يفسّر أن ما حدث اليوم هو تصرف صادر من أحد البشر الأشرار، وهو يغتصب مقتنيات غيره، ونحن نطلق عليه لفظ (لصّ)، وبالطبع لن يعيدها، فهو يعتبرها ملكه بمجرد الحصول عليها»..

- «لكن ألا يمكن أن يطلبها من صاحبها مباشرة؟».. سألت شونجلام بنوع من الفضول..

نظر الدكتور رشيد إليها من خلال مرآة السيارة قائلًا.. «في هذه الحاله نعتبره مجنونًا، لأنه يطلب ما هو ليس ملكه بدون سبب».

يبدو أن شونجلام لم تفهم، أو ربما لم تقتنع بالرد فأدارت وجهها لتراقب الطريق من النافذة، ثم عادت بعد ثوانٍ معدودة لتسأل:

- «وما هو المجنون؟»..

أجبت أنا هذه المرة:

«واقعيًا هومريض لا يستطيع التمييز في تصرفاته، وردود أفعاله بين الخطأ والصواب.. لكن الكلمة أصبحت صفة تطلق في عالمنا على الأشخاص الطبيعيين الذين يتصرّفون في بعض المواقف تصرفات غير مقبوله».. لم أكن أدري أن عقل شونجلام هو أداة كبيرة للاستيعاب، والتحليل، والتسجيل في آنٍ واحد.. وهوماظهر لاحقًا.

- «لكن ياشونجلام، هناك من يُحرَقون في مملكتكم، وقد شاهدتهم» طرحتُ السؤال بنفس السرعة التي خطر به على ذهني..

ردت شونجلام:

«هناك خطأ ما في تصوّرك.. هم أولًا لم يرتكبوا خطأً، بل هي مخالفة للنظام بمحاولتهم العبور لعالم البشر من خلال أحد الممرات الجنشورية، والتي يحظر المرور بها للجميع باستثناء الجنهال الأكبر، ومساعديه، وملك الجان، وأعضاء هيئة التدريس بالمدرسة الجنشورية، ومنهم أنا.. ثانيًا العقاب جاء بكامل إرادتهم لإحساسهم بحجم الخطأ الصادر منهم».

- «أتعنون إذن أن هذا الشخص الذي أخذ قلادتي هو مخالفٌ للنظام؟».. قالتها شونجلام وكأنها توصّلت إلى النتيجة الصحيحة..

أجاب الدكتور رشيد فورًا بابتسامة تعلو وجهه:

- «نعم، ولكننا لن نحرقه»

فسَألتُ:

- «إذن ما هو التصرف تجاه أمثاله؟»..

رد الدكتور رشيد:

- «باختصار، الحل هو بلاغ يقدم للسلطة المختصة بما حدث، وسوف تتخذ هي اللازم طبقًا للنظام المتبع بعد ضبط الفاعل»..

- «تقصدون رئاسة المملكة؟»..

أجبتُ:

- «لا، هي الجهة المختصة بتوفير الحماية، والأمن لأفراد الشعب، وفضّ أي نزاعات، وتُدعى الشرطة.. ومقرها لممارسة ذلك يطلق عليه قسم الشرطة»..

- «إذن، لنذهب لنقصّ عليهم ما حدث».. قالتها شونجلام بمنتهى الحماس.

***

مع عدم كوني محبذا لتلك الفكرة، إلا أن رأي الدكتور رشيد منذ البداية بالذهاب لعمل محضر بقسم الشرطة، وإصرار شونجلام على ذلك دفعنا للتوجه إلى هناك.. بدت شونجلام في دخولها لقسم الشرطة مثيرة للارتياب، فقد توقّفت عند البوابة لتنظر إلى المبنى.. ثم توجّهت بنظرها إلى الحراسة الخارجية بتمعّنٍ شديد.. اضطررتُ إلى جذبها إلى داخل المبنى بعد إخبارهم برغبتنا في تقديم بلاغ.. جلسنا انتظارًا في قاعة (النوبتجيّة).. الجو حار.. حركة، وصياح، وبكاء.. مجادلات، ومشاحنات.. زحامٌ شديد.. وجوهٌ تبدو محتقنة من أثر الانفعال الزائد كانت شونجلام هي الوحيدة التي استمتعت بطول فترة الانتظار.. كنت أجلس بجانبها على المقعد الخشبي المخصص للانتظار تحسُّبًا لأي حوارات متطفّلة قد تتعرّض لها، بينما قطع الدكتور رشيد المكان ذهابًا، وإيابًا وهو ينفث دخان سيجارته.

بعد وقت مرّ طويلًا كالدهر، أشار إلينا ضابطٌ شاب.. تقدمتُ مع الدكتور رشيد بينما انتظرت شونجلام في مكانها.. أخبرتُ الضابط بعد التحية أن السيدة التي معنا قد تعرّضت لحادث سرقة من دراجة بخارية، ونريد عمل بلاغٍ بشأن الحادث.. كانت أسئلة الضابط تبدو كقالب يتكرّر مع كثيرٍ من الحوادث المشابهة:

- أهي أحد أقاربك؟

- أين كان موقع السرقة؟

- هل تستطيع وصف الشخصين الراكبين للدراجة البخارية؟

كانت الأسئلة السابقة التي ألقاها علينا الضابط بشكلٍ شفوي وسريع، تبعها بما كنت أخشاه:

- «أرجو أن تحضرها لفتح المحضر»..

لم تفلح نهائيًا محاولاتنا أنا والدكتور رشيد في إقناع الضابط أنها تعرّضت لصدمة لا تمكنها من الإدلاء بأقوالها، بينما كنا نحن المصاحبين لها خلال الحادث، ويمكننا الإدلاء بكافة التفاصيل..

- «طالما هي من تعرضت للسرقة فيما يخصها، يجب أن نأخذ أقوالها هي!».. قالها الضابط بحده..

لم يكن هناك مفر.. أشرت لشونجلام بالحضور من مكان انتظارها.. نظرت بابتسامة، ثم قامت لتقطع تلك الخطوات فيما معظم الأعين الموجودة ترمقها بنظرات الإعجاب.. بدأ الضابط في كتابة تمهيدٍ للمحضر قبل أن تصل شونجلام أمامه.. وعند توقفه ليبدأ في سؤالها أصابه أيضًا سهم الإعجاب.. مع ابتسامة، ونظرة شونجلام الساحرة، ظهر الارتباك واضحًا عليه:

- «تفضلي يا سيدتي» قالها الضابط بنغمة إطراء.. «ما اسم حضرتك الثلاثي؟»..

- «لماذا؟».. أجابت شونجلام بشكلٍ سريع..

- ابتسم بعدها الضابط لينظر إليها نظرة تعجّب، لتجيب بعدها

- «اسمي شونجلام».. نظر الضابط إليها متعجِّبًا.

- لست مصرية؟

- لا

- إذن من أين أنتِ؟

- أنا من مملكة الجانلام..

ألقى الضابط بالقلم ليبدأ في النظر إلينا بنظراتٍ تحمل الكثير من التعجب، والرغبة في أن يقوم أحدنا بتفسير ما سمعه.. أسعفني تفكيري لرد سريع قد ينقذ هذا الموقف:

«إن السيدة من جنوب اليمن الشقيق، بمنطقة تدعى مملكة الجانلام.. وهي في زيارة أسرية لنا منذ عدة أيام».. وكما توقعت لم تكن معلومات الضابط الجغرافية واسعة بحيث يستطيع اكتشاف عدم صحة تلك المعلومة.. أومأ الضابط برأسه قائلًا:

- «أهلًا بكِ.. جواز سفرك لو تفضلتِ»..

انطلقت شونجلام لتحطم كل ما حاولنا أن نصلحه: «لقد حضرت عن طريق الجلسة طبقًا لخطة إنقاذي من الجان الأسود، والتي أقرها الملك أسيسلام ملك مملكة الجانلام، ووضع تفاصيلها «كاظلام»، وسأعود لموطني اليوم من خلال أحد الممرات الجنشورية»...

انتفض الضابط واقفًا ليصيح:

- «أنا ليس لدي الوقت لمثل تلك الخرافات، وهنا ليس مكانًا للدعابة»..

كنت أقف مكاني متجمدًا.. بينما وقف الدكتور رشيد وقد تغيّر لون وجهه، وأخذ يتصبب عرقًا.. كانت شونجلام تقف متعجبة من رد فعل الضابط من قولها الصدق المطلق.. مع حضور ضابط أكبر، نتيجة الجلبة التي حدثت، تكهرب الجو تمامًا:

- «فليكمل أحد غيري هذا المحضر.. نحن لانريد مجانين اليوم» قالها الضابط بصياح عالٍ.

وكأن شونجلام لم تسمع مما قاله سوى لفظ مجانين، والذي كان تفسيره قد سبق تخزينه بعقلها منذ قليل.. وكان أن قامت بتطبيق ما تعلمته:

- «أنا لست مجنونةً.. أنت المجنون»..

أحسست أن اليوم لن يمر، وأن شونجلام من الصعب أن تعود لموطنها.. على الأقل اليوم.. لم أسمع سوى صوتًا عاليًا يصيح:

- «الحجز، ثم تُعرض على النيابة المسائية!».. لم تكن شونجلام في احتياج لأن يدفعها أحد إلى الحجز.. بل تقدمت بثبات يدفعها الفضول لاكتشاف ما هذا الحجز.. حاولنا أن يبدو الأمر بالنسبة لها وكأنه أمرٌ عاديٌ، رغم إحساسنا بالمسؤولية تجاهها..

كان اللواء محمد زكي، وهو صديقٌ عزيزٌ للدكتور رشيد هو من أنقذ الموقف في لحظة تخيّلنا فيها أن الأمور قد وصلت إلى طريقٍ مسدود، كانت مجرد مكالمة تليفونية منه لمأمور القسم قد أتت بفعل السحر في تهدئة الأمور، وسرعة إنهاء الموقف.. كانت تعليمات اللواء «زكي» أن نذهب لنقابل المأمور لإنهاء الموضوع، وإخباره في حالة الاحتياج لأي مساعدة.

استقبلنا العقيد «مجدي» مأمور القسم بترحيبٍ شديد، ولم يتحدث في أي شيء إلا بعد انتهائنا من شرب كوبين من الليمون المثلّج.. بعدها جاءت عبارات المديح، والشكر لشخص اللواء «زكي»، وأنه لا يتردد

نهائيًا في تنفيذ طلباته.. ضغط العقيد مجدي على الجرس الموجود على مكتبه، ليأمر أحد أمناء الشرطة الذي دخل مؤديًا التحية:

- «أحضر السيدة»..

توقف العقيد «مجدي» فجأة لينظر إليَّ متسائلًا:

- «ما اسمها؟»..

أجبت بصوتٍ هادئ:

- «شونجلام»..

«أرجو اعتبار الموضوع منتهيًا، فقد تأكدت أنه لم يتم عمل محضر بعد، وقد تنازل الملازم شريف عن ذلك، لكنني أرى أنه من الأصول أن توجه له السيدة شونجلام كلمة ترضيةٍ لننهي هذا الموضوع».. كان الرد منطقيًا.. وتخيلي أن شونجلام لن تمانع في ذلك.

لكن الوقت مر دون أن يأتي أمين الشرطة مصطحبًا شونجلام.. حتى رنَّ جرس الهاتف بمكتب العقيد مجدي لتتغير ملامح وجهه قائلًا:

- «سأرى هذا الموضوع»..

وضع العقيد مجدي سماعة الهاتف لينظر إلينا بتجهّم:

- «إنها ترفض الخروج!»..

قفزتُ واقفًا:

- «اسمح لي سيادة العقيد أن أذهب أنا لإحضارها؟»..

- «سأسمح لك بذلك، لكنني أود أولًا أن أفهم تصرّفات هذه السيدة الغريبة.. ربما كانت تمثّل خطورة من نوع ما، وهنا دورنا في التأكّد من ذلك»..

أجاب الدكتور رشيد:

«سيادة العقيد، السيدة شونجلام سيدة فاضلة بكافة المقاييس، كل ما هنالك أنها تتعامل بحسابات مثالية لأبعد درجة ممكنة، وهو ما يسبب لنا ولها العديد من المشاكل، لكننا مستعدون للتوقيع على ما تريد من إقرارات أننا مسئولون عنها، وعن أفعالها تمامًا»..

- «تفضّل، حاول أن تحضرها فأنا أريد أن أراها»..

ونظر إليّ ليضغط الجرس ليصحبني أمين الشرطة لإحضار شونجلام.

في الطريق إلى الحجز أخبرني أمين الشرطة بمفاجأة مذهلة

-«أهي طبيعية؟.. أقصد هل تعاني من أمراض نفسية؟»..

أجبت:

- «هل صدر منها شيئًا؟»

- «الحقيقة أنها مثال رائع للمرأة المثالية، إلا..»

أجبته سريعًا:

- «إلا ماذا؟!»

- «ماقالته لي عندما طلبت منها أن تخرج معي من الحجز»

- «أرجوك أن تخبرني ما قالته»

- «لقد قالت إنها تنتظر الاحتراق لأنها خالفت النظام العام!»

كان الحجز بالدور السفلي.. لم أنتظر لأكمل الحديث مع أمين الشرطة.. قفزت كالمجنون عابرًا درجات السلم، ومسابقًا للزمن.. فأنا الوحيد الذي يعلم تمامًا ما تقصده شونجلام.. بل أكثر من هذا لقد شاهدته على الطبيعة في الممر الجنشوري، وكان أمرًا مرعبًا ولكن شونجلام؟.. لا لن يكون.

عندما وصلنا إلى الحجز كانت أبوابه مفتوحة، وهناك تجمهر من الحراس وأمناء الشرطة.. دخلت فورًا لأجد جميع الموجودين بالحجز متجمعين بجانب، بينما شونجلام تقف هادئة بأحد الأركان، وقد أصبح لونها أحمر لدرجة التوهّج.. بينما بدا الإحساس بدرجة الحرارة مرتفعًا في المكان.. كان الموقف مذهلًا لكل الموجودين.. اقتربتُ منها قائلًا:

- «شونجلام.. ماذا يحدث؟»

أجابتني:

- «أنت تعلم أن من يخالف النظام يجب أن يحترق بكامل إرادته»

أجبتها بصراخ:

-«ومن قال أنك خالفت النظام؟»

نظرت إليَّ، وبدأتُ أشعر أن لونها قد بدأ يعود للونه الطبيعي، ثم أجابت:

- «لقد علمت من الموجودين أنهم مخالفون للنظام، وهذا سبب وجودهم في هذا المكان، فقررت أن أبادر أنا بالاحتراق عقابًا لمخالفتي للنظام»..

أنهيتُ الموضوع واضعًا لشونجلام الدليل أنها لم تخطئ، فأنا هنا لاصطحابها خارج هذا المكان، بينما المخالفون للنظام باقون هنا، ولن يغادروا.. كان اقتناعها بالتفسيرات المنطقية سريعًا.. عادت شونجلام لحالتها الطبيعية، وتحرّكت معي بخطواتها الرقيقة متجهين لمكتب المأمور.. لم يَفُتْني في تلك اللحظة أن ألفت انتباه أمين الشرطة أن الموضوع تقريبًا منتهى طبقًا لتعليمات «مجدي» بك المأمور، وبتعليمات من اللواء «زكي» شخصيًا.. كان لفظ اللواء له مفعول السحر في

التخلّص من معظم المشكلات العالقة.. وكأنه لم يكن هناك شيء غير طبيعي بحجرة الحجز منذ دقائق قليلة.. كل شيء يسير على ما يرام.

في مكتب المأمور مرة أخرى.. كان العقيد «مجدي» في انتظارنا عندما دخلت شونجلام تسبقني بتأثيرها الساحر، وانطباعها الأوّل الذي لا يزول.. لم أكن أدري نوعية التغييرات التي تحدث بداخلها.. متى وكيف تحدث؟.. لكنني لاحظت تغييرًا متعمّدًا في أسلوبها.. ربما بعدما اقتنعت بأنها لم تخالف أي نظام، أو أن طول وجودها هنا قد يتعارض مع موعد عودتها لموطنها.. في موقف غريب يتناقض تمامًا مع ما سبق، تقدمت شونجلام بثبات وثقة لتلقي التحية على العقيد «مجدي» بمنتهى الود والاحترام:

- «سيادة العقيد، أرجو أن تتقبل أسفي واعتذاري عن بعض الأحداث الغير مقصودة التي حدثت اليوم، فالتوتر الناتج عن الحادث الذي تعرضت له كان سببًا رئيسيًا في ذلك.. كما آمل أن أقابل سيادة الملازم لأقدم له اعتذاري الشخصي».

كدنا -أنا والدكتور رشيد- نصاب بلوثة عقلية للتبدل الفجائي الظاهر في معاملة شونجلام..

أما العقيد «مجدي» فلم يقتنع نهائيًا إلا بما شاهده أمامه.. لدرجة أنه أخرج كارته الشخصي ليعطيه لها في حالة احتياجها لأية خدمات أثناء وجودها بمصر، بينما تابع قائلًا:

- «أما الملازم شريف، فسوف أنقل له تحياتك»..

حتى إنه لم يقل «اعتذارك»..

- «وأرجو يا سيدتي أن تتقبلي أنتِ خالص اعتذارنا عن الحادث المؤسف الذي تعرضتِ له، وتأكدي أن معظم مرتكبي هذه الحوادث معروفون لدينا، وسنحضرهم خلال ساعات لنعيد ما أُخِذَ منكِ».

كانت الساعة قد جاوزت الخامسة عصرًا عندما ألقينا التحية، وشكرنا العقيد «مجدي»، وانطلقنا فورًا من مبنى قسم الشرطة بعد يومٍ حافل.. نظرت إلى الدكتور رشيد، وتنفّسنا الصعداء على انتهاء تلك الساعات العصيبة.

***

كان اختلاف المقاييس، والحكم على الأحداث، والعديد من المتغيّرات بين عالمنا، وعالم شونجلام هو ما ظهر حين فوجئنا بها تشكرنا بسعادةٍ بالغةٍ بعد هذا اليوم الرائع الذي عاشته، والذي كان بمثابة فرصة مثاليةٍ لدراسة أنماط مختلفةٍ من عالم الإنس.. كان ما اقترحته شونجلام

دون أن تدري أجمل ما يمكـن أن يكـون بعـد الأحـداث الـسابقة.. كـان اقتراحها أن نذهب لمكان يطلّ على مملكة البشر، وهو ما يعنـي بتفـسيرنا البسيط يطل على المدينة.. القاهرة.

اقـترح الـدكتور رشـيد أن نتنـاول طعـام العـشاء بـالمطعم الـدائري ببرج القاهرة.. وكانت فكرة رائعة.. جلست شونجلام هذه المرّة بجوار الدكتور رشيد في سيارته بينما جلستُ أنا بالخلف.. كانت خصلات مـن شعر شونجلام تنسدل على ظهر المقعد، وتتطاير أمامي مـع نـسمة هـواء تتسلل مـن النافـذة.. أكمـل الـدكتور رشـيد هـذا الجـوّ الحـالم بتـشغيل مقطوعات متميزة من الموسيقى الخفيفة.. كان من الواضح أنها التجربة الأولى لـشونجلام في الاسـتماع إلى الموسـيقى.. كانـت يـداها ترتفـع، وتنخفض بشكل متوافق إلى حدٍ ما مع الأنغـام.. كانـت في حالـة تركيـز عالٍ حتـى أنهـا لم تـردّ عـلى الـدكتور رشـيد حـين أخبرهـا باسـم القطعـة الموسيقية.

كنت في محاولة لمعايشة نفس إحساسها.. تصورت أننـي لم أسـتمع إلى الموسيقى طوال حياتي.. ما هو الانطباع الذي ستتركه عـليَّ عنـد أول استماع؟.. هل يجب أن تـرتبط بأحـداث؟.. أم تخيّلات؟.. أم يمكـن أن يكون التذوّق المجرّد؟.. كانت الرحلة حتى بـرج القـاهرة مثـالًا واقعيًـا

للرومانسية.. وصلنا إلى البرج.. كانت الساعة قد قاربت الثامنة مساءً عندما أطللنا من شرفة البرج.. لم يكن الإحساس الذي انطبع على وجه شونجلام يحتاج إلى تفسير.. القاهرة تتلألأ أمامنا في صورةٍ من أروع ما يمكن أن تراه العين.. التفتت شونجلام لتُعبِّر عن ذلك قائلة:

- «كم هي جميلة مملكتكم.. ياليتني كنت واحدة منكم».

ثلاث ساعات من أجمل ما يمكن أن يعيشه الإنسان، ولن أبالغ إذا أضفتُ أيضًا والجان.. كانت المشاعر الرقيقة تنتقل بيننا بلغة الإنسان.. لم يكن الموقف يحتاج لتلك النظرات الثاقبة منها.. كدت أصدق أنها بشرٌ.. ورغم أنني كنت أشعر أن التزامها بكونها ليست من هذا العالم يقيدني إلا أن ما كانت عليه الحال هو لغة مشتركة للعيون أباحت بكل ما هو ظاهر وباطن.

ساعة واحدة قبل موعد مغادرة شونجلام.. كان الخبر الذي تعمّدت شونجلام أن تخفيه عني حتى هذا التوقيت هو مفاجأة الليلة:

- «إن مملكة الجانلام في انتظار تكريمك لما قمت به، وتعويضًا عما تعرّضت له.. وأرجو قبل أن تجيب أن تعلم أن رفضك هو مخالفة مني لقوانين المملكة العليا، وهذا يعني»...

توقفت بعد أن أغمضت عينيها، كنت أعرف تمامًا ما تقصده.. لم يكن هناك مفر أمامي إلا أن أستجيب لطلب شونجلام بحضور هذا التكريم.. كان الدكتور رشيد في هذه اللحظة في انتظار دعوةٍ مماثلة لم تحدث، بينما سارعت شونجلام بالتوضيح:

- «دكتور رشيد، إن ما قمت به هو محل تقدير الجميع بمملكة الجانلام، وسيقرر الملك أسيسلام أسلوب وكيفية تكريمك بما يتناسب مع مكانتك المرموقة، خاصة لدينا..»

ابتسم الدكتور رشيد بنوعٍ من الفخر قائلًا:

- «أشكرك سيدتي، فما قمت به كان أقل مايجب»..

أكملت شونجلام:

- «لي عندك طلب واحد، أكون شاكرة جدًا لك على تلبيته»..

أجاب الدكتور رشيد:

- «أتشرّف بتلبية طلباتك سيدتي»..

نظرت شونجلام نظرة تأمُّلٍ.. ونطقت بكلمة واحدة:

- «مدينة الملاهي».. كانت هذه الكلمة، وإن تشكّكتُ في صحة إصغائي، أحد الألغاز المتكررة التي اعتدت عليها منذ بدأت تلك المغامرة.. أكملت شونجلام:

- «سأوضح لكم في الطريق مقصدي».

أبعد ما كان يمكن أن يخطر بذهني أن أحد الممرات الجنشورية للانتقال لمملكة الجانلام متواجد في مدينة ملاهٍ متواضعة من خلال إحدى الألعاب، ولكنه مرتبط بتوقيت محدد.. أخبرتنا شونجلام أنه أحد الممرات الجنشورية الجديدة التي لم يتم تجربتها بعد بشكلٍ عام في مملكة الجانلام.. كان ما تقوم شونجلام بشرحه خلال تواجدنا بالسيارة متجهين لمنطقة شبرا، من الأهمية للدكتور رشيد بحيث إنه توقف عدة مرات ليدوّن بعض الملاحظات، أو المعلومات التي مثَّلت له قيمة لا تُقدّر بمال.

حديقة صغيرة لايوجد بها سوى أربع، أو خمس ألعاب قديمة، وعدد بسيط جدًا من الأشخاص.. كانت هذه هي مدينة الملاهي المقصودة.. تقدمت شونجلام، وهي تعرف تمامًا مقصدها، إلى لعبة العربات.. تشبه القارب الصغير، ذات مقعدين، وتدور على محور رأسي مع تزايد السرعة تدريجيًا.

قاربت الساعة منتصف الليل، موعد عودة شونجلام وأنا بصحبتها.. تقدم الدكتور رشيد مسرعًا حيث (كُشك) خشبي بجوار اللعبة، وجاء بتذكرتين.. أمسكت شونجلام بيدي الدكتور رشيد قائلة:

- «دكتور رشيد الأخشيدي، أشكرك على كل ما فعلته من أجلي»..

لم تسعف الكلمات الدكتور رشيد ليجيب.. فقط ابتسم بتأثر.. تقدمت شونجلام لتركب العربة موجهة نظرها إليَّ لأتقدم معها.. وها أنا مرة أخرى أترك نفسي بكامل إرادتي إلى شونجلام، لتصحبني إلى عالم الجان.

(٩)

تكريم وعودة

منتصف ليل القاهرة تمامًا.. أخذت العربة تتحرك، وأنا بجانب شونجلام نعيش تجربة الانتقال لعالمهم من خلال إحدى ألعاب الملاهي البسيطة الموجودة بحي شبرا.. أخذت سرعة العربة تتزايد تدريجيًّا.. كان الدكتور رشيد يظهر مع دوران العربة بشكلٍ متكرر على فترات أخذت تقترب زمنيًا حتى أحسست أنه ظاهر بشكل دائم.. ومع زيادة السرعة أصابني الدوار بشكل جعلني فاقد الإحساس بما يدور حولي.. كان ما يدعو للتعجب هو كيف يمكن أن تصل هذه العربات البسيطة في تلك الملاهي المتواضعة لهذه السرعة، وكانت الإجابة المؤكدة يبدو أنها أحد الممرات الجنشورية.

توقفت العربة تدريجيًّا.. كان ما يظهر أمامي هو بقع لونية تبرق بشكل متكرر.. لم أعد أعي لا المكان، ولا الزمان.. حتى وجود شونجلام بجانبي لم أعد متأكدًا منه.

توقفت العربة تمامًا.. لم أبدأ في تجميع المشاهد الطبيعية أمامي إلا بعد مرور بضع ثوانٍ.. كان أول ما ذهبت عيني للبحث عنه هو الدكتور

رشيد.. لم يكن موجودًا، بل لم يكن هناك أحد.. لكنه نفس المكان تمامًا.. مع عودة الرؤية بشكلٍ واضح وانتهاء الدوار، كانت أول المفاجآت عربة من تلك العربات التي تقطرها تلك الكائنات الغريبة منتظرة.. نعم لقد مررنا.. نحن الآن في مملكة الجانلام مرة أخرى.. لكن أين شونجلام؟.. لم يكن يبدو لها أي أثر.

قررتُ أن أركب تلك العربة المنتظرة، وقد سبق لي الاقتناع بمدى ذكاء تلك الكائنات التي تقطرها.. وكانت المفاجأة الثانية.. شونجلام في انتظاري داخل العربة بحضورها الطاغي، ترتدي أفخم ما يمكن أن ترتديه الأميرات في المناسبات الرسمية.. أحسست أنني جزء من أسطورة سحيقة كتبها التاريخ، ورددها الناس، لكن لا أحد يعلم هل هي واقعٌ، أم ضربٌ من الخيال.

ارتفعت العربة متحركة، وإن كانت هذه المرة لم تكن بالسرعة المعتادة.. لمحتُ على جانبي العربة صفّين من الأطياف الهائمة عالية القامة فيما يشبه الموكب الملكي.. تأكّد ذلك عندما نظرت للخلف لأجد أنه موكب من العربات لايشملنا نحن فقط.. انطلق الموكب يخترق القاهرة بنسختها الموجودة في مملكة الجانلام حيث الضباب الكثيف، وشعاع القمر الحاد.. لم تكن الجهة التي نقصدها معلومة لي، ولكن

حجم التجهيزات كان يظهر أنها يجب أن تكون المكان الرسمي الرئيسي لمثل هذه الطقوس الملكية.. أصابتني الحيرة.. أين يمكن أن يكون هذا المكان الذي يستوعب إقامة احتفال للجان بهذا الحجم، وفي القاهرة؟

فعلًا كان مناسبًا بحق.. اختيار مذهل.. قصر البارون امبان التاريخي بمنطقة مصر الجديدة.. أكملت شونجلام ما يدور بعقلي قائلة:

- «هذا المكان خصصناه لتكريم الكيانات رفيعة المستوى، ولأول مرة نقيم به حفل تكريم لأحد من البشر»..

أحسست بقيمة الجميل الذي تحمله كل مملكة الـ(لام) لشخصي.. كنت أشعر شعورًا مزدوجًا بين الفخر، والثناء.

كان الموكب قد استقر في الساحة الداخلية أمام البوّابة الضخمة للمبنى العتيق.. فتح أحد الأطياف المصاحبة الباب لتتقدم شونجلام ممسكة بيدي.. لنرتفع عن الأرض وسط صفوف من الأطياف الساكنة التي بدأت تحني رؤوسها بمجرد العبور أمامها.. لم تكن مراسم عادية تلك التي كانت هناك.. بمجرد عبورنا البوابة، كان البهو الرئيسي للقصر مكتظًا بحشدٍ فاق ما سبق، ورأيته متجمّعًا لديهم بمملكة الجانلام تشارك الجميع في إمساكهم بما يشبه الشموع المضيئة مع تحية التنهدات المعتادة لديهم، وإن كانت هذه المرة تأخذ إيقاعًا خاصًا.

كنا نتّجه إلى ما يشبه منصّة اصطف خلفها المجلس الأعلى للمملكة الذي أعرف تقريبًا معظم أعضائه، أما خلفهم فكانت منصة بمستوى أعلى يهيم وراءها الملك أسيسلام ملك مملكة الجانلام.

كان حضورًا طاغيًا تميزه الهيبة، والطقوس الاحتفالية، بدت مراسم الاحتفال مشابهة إلى حد كبير ما يحدث في عالمنا، فقد تناوب أعضاء المجلس الأعلى للمملكة في إلقاء كلمات الترحيب، والشكر بطريقتهم المعتادة في تبادل الخواطر، وفي ظل مقاطعات مستمرة من الهمهمات، والمزيد من التنهدات..كانت شونجلام لاتزال ممسكة بيدي بإصرار غريب.. فهمتُ بعدها أنها كانت تود نقل كل ما يقال إلى عقلي بطريقتهم المذهلة في نقل الأفكار.

ركزت معظم الكلمات على الدور البطولي الذي قمتُ به بكامل إرادتي لإنقاذ «الملاذ القادم» وبالتالي المملكة كلها، كما أن الدرس الذي تعلمه الجان الأسود بقدرتنا على ربط، وإحضار، وتدمير من نريد منهم كان بمثابة انتصار ساحق يدفعهم لعدم التفكير في محاولة تكرار هذه المغامرة مرة أخرى.

كانت الأفكار التي نقلتها إليَّ شونجلام مباشرة بطريقة التوارد واضحة وضوح اللغة المسموعة باستثناء لفظ «الملاذ القادم» الذي شكّل لي إحدى كبرى المفاجآت عندما استوضحته بشكلٍ عابرٍ منها..

- «إنني المختارة كملكة قادمة لمملكة الجانلام طبقًا لنظامنا الحاكم بتحديد الملك قبل توليه بفترة، وهو ما نطلق عليه «الملاذ القادم».. اعذرني، لم تجئ الفرصة لإخبارك بذلك»، وابتسمت ابتسامتها الرقيقة.

جاءت الخلاصة من الملك أسيسلام بموافقته على منحي وسام الجانلام العالي، وهو أعلي ما يمكن أن يمنح من أوسمة في مملكة الجانلام، تقديرًا، وعرفانًا بالدور المتميز الذي قمتُ به.

لم أكن أدري.. هل يمكن وجود أشياء مادية لديهم أستطيع الاحتفاظ بها؟ وكيف يبدو هذا الوسام؟.. قطع تفكيري الجنهال الأكبر قائلًا:

- «تفضل لتُقَلَّد بالوسام»..

تقدمت بصحبة شونجلام وسط همهمات مرتفعة بدت كنوع من التصفيق الحاد، حتى أصبحنا في مقابل الملك أسيسلام.. حَنَت شونجلام رأسها بالتحية بينما تركت يدي لأرتكز على الأرض.. نظر

الملك أسيسلام في وجهي، ثم مدّ يديه ليلمس كتفي برفق، مع انطلاق التنهدات فجأة بصوتٍ عالٍ.. ما أعجب ما كان!.. لم يكن الوسام قلادة ملموسة، بل كان التكريم والشرف بملامسة ملك مملكة الجانلام!

انتهى الاحتفال بتقليدي هذا الوسام المتميز بطريقة مملكة الجانلام، مع تنقّلنا هائمَيْن -أنا وشونجلام- لتحية الموجودين.. بدأ الحاضرون في الانصراف تدريجيًّا، بينما كان واضحًا الآن استحالة أن يكون أي منا بعالم الآخر.. حاولت شونجلام المحاولة الأخيرة لأظل معها بمملكة الجانلام بينما جاءت محاولتي العكسية لتكون هي معي بعالم البشر.

تقدم الجنهال الأكبر مقتربًا ليُحَيِّيَني مرة أخرى، ولكن بطريقة البشر كنوع من الود والامتنان، واستطرد قائلًا:

- «سنمحنك راحة البال من عذاب التفكير.. ستمحى ذكراياتنا من ذاكرتك باستثناء بعض الرموز، سنتركها لتبدو كحلمٍ بعيد، وسنعيدك الآن لموطنك، وعشيرتك، مع خالص حبنا وتقديرنا».

تحرّك الموكب المصاحب لي من أعضاء المجلس الأعلى ليتوجّه إلى وسط المدينة حيث تقع عمارتنا.. كان الرجوع لعالمنا مخالفًا تمامًا لما توقعت.. لم نتوجه إلى شقة الدور التاسع.. لم يكن هناك ممر جنشوري

محاطٌ بالأهوال كما حدث سابقًا.. لم يكن هناك بحار، أوغابات، أوغيرها.. توجّه الجمع المصاحب لنا إلى شقة شونجلام بالدور السادس، أو لنقل شقّتي.. تقدم أعضاء المجلس بشكلٍ مرتّب، كلٌ يمد يده ليمسك بيدي، فينقل إلى عقلي كمًّا من عبارات الشكر، والتقدير الرقيقة.. كاظلام، المدراشية، والجنهال الأكبر، وغيرهم لم تتح لي فرصة معرفتهم.

وقفت شونجلام لتنظر في عيني.. ولأول مرة وبدون أن تمسك يدي، أحسست بكل ما تريد أن تقول.. مددت أنا يدي لأمسك بيدها لأنطق بكلمة واحدة فقط:

- «شونجلام، لن أنساكي»..

فتحتُ باب غرفتي، ونظرتُ إليهم.. كان تجمّعهم يبدو كمشهد مؤثّر.. كم سأفتقدهم.. أغلقت الباب بهدوء لتتغير فجأة الإضاءة من شبه ظلام إلى صباحٍ مشرقٍ.

***

مددت يدي أفتح باب الغرفة خارجًا منها في نفس الوقت الذي كان فيه جرس الباب يقرع.. كان أحد أصدقائي هو القادم.. دعوته للدخول.. كنت أشعر بصداعٍ يكاد يحطم رأسي، مع إحساس أنني قد

أمضيت في النوم وقتًا طويلًا منذ حفلة عيد ميلادي.. نظر صديقي لوجهي قائلًا:

- «مالك تبدو شاحبًا؟ من يراك هكذا يظن أنك لم تذق طعم النوم منذ فترة، مع أنك كنت أول المنصرفين أمس.. بعد ليلة الجان التي قضيناها احتفالًا بعيد ميلادك».. قالها وضحك.

لكنني تأثرت جدًا بلفظ الجان بدون أن أعرف السبب.. تعجب صديقي، واستطرد قائلًا:

- «بالمناسبة، ألم تقرأ بصحف اليوم الخبر عن قصر البارون الذي كان مضاءً أمس، وأن كثيرًا من السكان المحيطين قد شاهدوا به الأنوار.. بل إن بعضهم قد سمع أصواتًا داخل القصر.. مؤكّد هو مسكون».. أحسست أنني أريد أن أتذكّر شيئًا يبدو بعيدًا، ولا أستطيع.

انصرف صديقي.. كنت أشعر بكمٍّ لا يوصف من الإرهاق.. قررت أن أستلقي قليلًا على مقعد وثير.. حين رنّ الهاتف، عندما رددت كان المتحدث يسأل عني شخصيًا:

- «نريدك أن تحضر لقسم الشرطة لاستكمال المحضر الخاص بالسرقة التي تعرضت لها السيدة شونجلام»..

ألقيت السماعة، ونظرت أمامي في حالةٍ من الذهول.. مع رائحة عطر غريب تغمر المكان.. شونجلام.. حقيقة أنتِ أم خيال؟

محمد عزوز

أبريل ٢٠١٠

